

نشر من المعهد الإسباني للعربي للثقافة في مدريد
كلاسيكيون في اللغة الأسبانية
الكتاب السادس



حياة لثريودي تورس

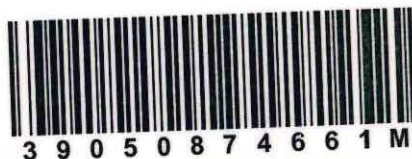
ترجمه عن الأسبانية وقدم له وعلق عليه

الدكتور عبد الرحمن بوزي

حياة لثريودي تورس

ترجمته عن الأسبانية وقدم له وعلق عليه

الدكتور محمد الرحمن بزي



تصدير عام

تصدير عام

١ - تاريخ تأليف الكتاب .

لا يعرف لهذا الكتاب مؤلف ولا تاريخ تأليف . كل ما هنالك فروض تلو فروض اقترحها الباحثون منذ بداية القرن السابع عشر حتى اليوم ، دون أن يبلغ واحد منها مرتبة اليقين ، بل الرجحان .

والشيء الوحيد اليقيني هو أن أقدم طبعات وصلتنا لهذا الكتاب طبعات ثلاث تحمل كلها تاريخ سنة ١٥٥٤ احداها تمت في القلعة « Alcalá » والثانية في برغش « Burgos » والثالثة في انفرس « Amberes » .

وطبعة القلعة تحمل تاريخا دقيقا ، ٢٦ فبراير سنة ١٥٥٤ . بيد أنها تشير الى طبعة سابقة اذ ورد على صفحة عنوانها « طبعة جديدة ومصححة ومزينة من جديد في هذه الطبعة الثانية » . وهي بالطبع تحتوي على بعض فقرات قليلة القيمة لا توجد في طبعة برغش .

على أن الطبقات الثلاث تتفاوت فيما بينها في بعض القراءات . والنص الذي تقدمه طبعة برغش يختلف اختلافا ظاهرا عن طبعة القلعة ، بحيث لا يمكن أن تكون احدهما مأخوذة عن الأخرى ، بينما نص طبعتي القلعة وانفرس واحد . ومن هنا افترض الباحثون وجود أصلين أحدهما لطبعتي القلعة وانفرس ، والآخر لطبعة برغش .

وما دامت هذه الطبقات الثلاث ليست الاولى ، ولم يبق لنا ما هو أقدم منها فقد راح الباحثون يفتشون بطريق النقد الباطني ، والنقد الخارجي عما يساعد على تحديد تاريخ الطبعة الاولى :

١ - أما النقد الباطني فتعلق بثلاث وقائع ورد ذكرها في النص هي :

٢ - معركة جربة المشؤومة على الاسبان ، وقد وقعت في سنة

١٥١٠ .

ب - اشارة غامضة الى أسر فرانسوا الأول ملك فرنسا ، بعد هزيمته في معركة « بافيا » ، وذلك الأمر وقع فيما بين فبراير ١٥٢٥ وفبراير ١٥٢٦ .

ج - عقد الامبراطور الظافر « كارلوس الخامس » (شارلكان)

مجلسا « Cortes » في مدينة طليطلة « Toledo » .

ولما كانت معركة جربة « Los Gelves » مبكرة (سنة ١٥١٠) ،

وكانت الاشارة الى أسر « ملك فرنسا » غامضة غير محددة ، فقد انحصر البحث في الواقعة الثالثة ، لكنها أيضا مصدر نزاع ، لأن كارلوس الخامس عقد مجلسا في

طليطلة في مناسبتين سابقتين على طبعات الكتاب (سنة ١٥٥٤) احداهما في سنة ١٥٢٥ والثانية في سنة ١٥٣٨ - ١٥٣٩ . فأيهما نعتد ؟ .

ونشفق على القارئ ها هنا من ايراد حجج الفريقين المتبارزين في هذه المعركة فريق المرجحين للمناسبة الاولى (سنة ١٥٢٥) ، وفريق المرجحين للمناسبة الثانية (١٥٣٨ - ١٥٣٩) ، ونحيل المتطلعين الى معرفة ذلك الى أبحاثهما . (١) وحتى لو تقرر أن المقصود هو مجلس سنة ١٥٢٥ فلا يحل هذا المشكلة في شيء .

ومن هنا ذهب فريق آخر من الباحثين الى اعتبار الظروف العقلية والاهتمامات الاجتماعية الواردة في الكتاب . فرأى « مانويل اسنسيو (٢) » أن تاريخ تأليفه لابد أن يكون في سنة ١٥٣٠ ، لأنه مرتبط بالحركة الاشراقية التي نزعت اليها الجماعة التي احاطت بدوق اسكالونا (المتوفي سنة ١٥٢٩) . ورأى « مارسيل بتايون » و « ماركيت بيا نويفا (٣) » أن تأليفه كان في السنوات القريبة من تاريخ طبعاتنا الثلاث لأن له أشباها ونظائر في الأدب الذي أنتج في عقد الخامس من القرن السادس عشر . وأدرك بتايون (٤) في الكتاب أصداء للوضع الذي كان فيه المتشردون والشحاذون مما أدى الى اصدار المجلس الملكي لقانون سنة ١٥٤١ (الذي نشر سنة ١٥٤١) بشأن هؤلاء ويقضي بأن يمنع من التسول كل من لم يثبت عليه أنه فقير ، ومن ممارسته خارج بلده الأصلي ، وفي الكتاب فعلا إشارة الى القرار الصادر من بلدية طليطلة بمنع الأجانب الفقراء من الشحادة .

كما يستشهد بتايون بالاشارة الى السنة التي عم فيها القحط وقال ربما كان المقصود بها سنة ١٥٤٣ وهي التي عم فيها القحط اقليم طليطلة ، كما يستشهد

بشكوى لثريو الدائمة من انعدام الاحسان عند الناس . ولكن من السهل الرد على هذه الأدلة بعكسها : فالشكوى من انعدام الاحسان دائمة ونجدها قبل ذلك الوقت بفترات طويلة ، كما أنها طبيعية على لسان شحاذ ، والقحط وقع في سنوات أخرى أسبق من سنة ١٥٤٣ .

٢ - أما وقد أخفق النقد الباطني فقد اتجه البحث الى النقد الخارجي ، أعني الى تلمس ذكر للكتاب في وقت مبكر عن سنة ١٥٥٤ . وهنا أخفق البحث تماما اذ لم يعثر على وثيقة واحدة أو كتاب أشار الى كتابنا هذا قبل سنة ١٥٥٤ ، بل ولم نجد كتابا معروف التاريخ قبل هذه السنة ربما يكون قد تأثر به .

ومن هنا رأى البعض (٥) أنه ربما كان الأسلم أن نفسر هذا الصمت عن ذكر الكتاب بأنه يرجع الى أنه انما طبع لأول مرة في عام قريب جدا من تلك السنة .

من هو مؤلفه ؟

وسنضرب أخماسا لاسداس أيضا ان حاولنا تحديد من هو مؤلفه : فكل طبعات الكتاب في القرنين السادس عشر والسابع عشر ظهرت دون ذكر اسم المؤلف . واعوزتنا حتى الآن كل شهادة أو وثيقة صادقة عن هوية مؤلفه . وفقط في بداية القرن السابع عشر بدأ اقتراح الفروض لتحديده : -

١ - فنجد أولا الأخ « خوسيه من شغوينسة » « Fr. José de Sigüenza » في كتابه (٦) عن حياة الأخ خوان أورتيجا ، الذي ألفه في سنة ١٦٠٥ ، يقول : « يقولون أنه حين كان (أي خوان أورتيجا) تلميذاً في سلمنقة وهو في فناء السن ،

وكان ذا قريحة ماجنة ظريفة ، فانه ألف ذلك الكتاب الصغير الذي شاع باسم «لثريودى تورمس» مبينا في هذا الموضوع المتواضع عن خصائص اللغة الاسبانية ومناقب الأشخاص التي يقدمها ، بمهارة فريدة وبساطة حتى استحق أن يقرأه أصحاب الذوق الجميل . والدليل على ذلك هو المسودة التي كتبها بخط يده ووجدت في صومعته » . ولكن حتى لو صح أنهم عثروا على مثل هذه المسودة فليس هذا دليلا قاطعا على أنه المؤلف . كما أن خوسيه دى شغونسه ذكر هذه المسألة على أنها اشاعة : « يقولون » لاعلى أنها خبر مؤكد .

ب - وفي سنة ١٦٠٧ نسب فالريو أندريس (٧) ، وكذلك فعل الأب شوت (٨) في سنة ١٦٠٨ ، هذا الكتاب ، دون توكيد منها (« يعتقد أن . . . ») ، الى دون ديبجو هورتادو دى مندوتا (١٥٠٤ - ١٥٧٥) ، مؤلف كتاب « حرب غرناطة » . وهذا الرأي راج في القرن الثامن عشر ، ومعظم القرن التاسع عشر ، حتى أن بعض طبعات الكتاب حملت اسم ديبجو هورتادو دى مندوتا بوصفه مؤلف الكتاب . وكان مندوتا في حين طبع الكتاب حاكما لسيينا (في ايطاليا) من قبل كارلوس الخامس ، بعد أن كان سفيرا في فينيسيا وروما . ولما كان كتابنا هذا كتبيا هزليا فلم يكن يليق بمن في مكانته أن يضع اسمه عليه ! .

ج - واستمر هذا الفرض يحتل مكان الصدارة حوالي خمسين عاما حتى جاء موريل فاتيو (٩) في سنة ١٨٨٦ فنقده نقدا قويا مدمرا ، يعتمد على المقارنة في الاسلوب بين كتابنا هذا وبين « حرب غرناطة » لمندوتا .

د - لكن هذا الفرض وجد بعد ذلك بحوالي خمسين عاما من يدافع عنه ، لكن دون ايراد حجج حاسمة ، ومنهم أنخل جونتالث بالنشيا (١٠) ويوخينيو ميله (١١) لكنهما بينا أن الاستناد الى مقارنة اسلوبي هذين الكتابين لا يقدم دليلا قاطعا ينفي نسبة كتابنا الى مندوثا ، وذلك لاختلاف موضوع الكتابين : فاحدهما «حرب غرناطة» موضوع جاد فيحتاج الى اسلوب متوتر مكثف جاد ، بينما موضوع كتابنا فكاهة شعبية ساذج ، فلماذا لا يختلف الاسلوب باختلاف الموضوع عند المؤلف الواحد؟! وآية ذلك في كتابنا نفسه. فان اسلوب مقدمته ، وهو اسلوب رصين يستشهد بالأدب الروماني يختلف عن اسلوب سائر الكتاب ، وذلك لاختلاف الغرض ، فلم لا يكون الأمر هكذا أيضا فيما يتعلق بالكتابين السالفين الذكر؟ لكن هناك أسبابا قوية أخرى تمنع من نسبة كتابنا هذا الى مندوثا : منها أن الفرض جاء متأخرا جدا ، ومنها أن ناشر شعر مندوثا في سنة ١٦١٠ لم يشر الى ذلك ، وكان له مجال لذكره لأن من بين هذا الشعر شعراً خفيفاً مرحاً .

هـ - فزعم فونجيري دى هان (١٢) أن الكتاب يمكن أن ينسب الى لوبه دى رويدا « Lope de Rueda » بدعوى أنه في سنة ١٥٣٨ وجد مناد عام في طليطلة باسم لثريو . واستند في هذا الى كون الكتاب ترجمة ذاتية وان مؤلفه من أصل وضع . لكن يمكن أن يعترض على هذا الفرض الذي يتمشى مع الوهم الذي يريد المؤلف أن يوقعه في نفس القارى ، وهو أنه ترجمة ذاتية بأن يقال أن مناديا جاهلا كهذا لا يمكن أن يعرف شيشرون وأوفيد وينقل عنهم .

٢ - وزعم ثخادور (١٣) «Cejador» أن الكتاب من تأليف سباستيان دى

هوروثكو « Sebastián de Horozco » وهو كاتب مقل كان يعيش في طليطلة على عهد فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) وترك ديوان أغاني « Cancionero » طبع في سنة ١٨٧٤ ، و « مجمع أمثال » « Compilación de proverbios » و « أمشاج من حوادث مختلفة » وفي هذه « الأمشاج » يذكر حوادث مختلفة تتشابه مع بعض أحداث كتاب « لثريودي تورمس » . ثم أنه في ديوان اغانيه يورد لثريو وسيده الاعمى في فصل قريب جدا من الحادث الأخير في الفصل الثاني من كتابنا هذا . لكن يعترض هذه الحجة أن هذه القطعة ليست مؤرخة ، ويمكن أن تكون متأخرة جدا عن سنة ١٥٥٤ وهي سنة الطبعات الثلاث لكتابنا .

٣ - وجاء أمريكو كاسترر (١٤) « Américo Castro » صاحب كتاب « اسبانيا في تاريخها » (سنة ١٩٤٨) فاقترح في مقدمة طبعته لكتابنا هذا فرضا مختلفا تماما عن الفروض السابقة وهو أن يكون مؤلف الكتاب أحد المنتصرة من اليهود « Conversos » أو أبناء اليهود الذين حملوا على اعتناق المسيحية فامتلات نفوسهم مرارة ضد المسيحية والكنيسة ، اذ كتابنا هذا حافل خصوصا بنقد رجال الكنيسة أمر نقد واقواه نفوزا وحدة . ويعتقد كاسترو أن ورود التعبير « يخلق من جديد » (في بداية الفصل الثالث) الذي يطبقه لثرو على خلق العالم هو تعبير عن فكرة في الخلق يهودية الطابع . ومن ناحية أخرى يرى كاسترو أن في كتابنا من عنف النقد والمرارة ماتجده في « قرمان دى الفاراقى » « Guzmán de Alfarche » وهو من تأليف متنصر هو ماتيوي البان .

٤ - وهناك من نسبوا كتابنا هذا الى خوان دى فالديس « Juan de Valdés » (١٤٩٠ - ١٥٤١) الكاتب الانساني النزعة والناقد ، وكان من شيعة أرزمس وذا آراء مبتدعة في الدين ، أدت به الى روما (سنة ١٥٣١) ومن ثم الى نابلي حيث كون جماعة اصلاح ديني .

ومن نسبوه الى بدرودى روا « Pedro de Rúa » .

وأخيرا (١٥) هناك من نسبة الى هرنان نويث «Hernán Núñez» . وهكذا توالت الفروض والحجج دون أن نصل حتى الآن الى القول الفصل في معرفة من هو المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب .

مدى انتشار الكتاب :

والكتاب ، بعد هذا ، لم يلق من الانتشار ما يستحقه ، اذا قورن بنظائره مثل «ماركواورليو» ، أو «ديانا» أو أشعار جاريثلاسودى بيجا . فقد طبع منه حتى سنة ١٦٠٠ :

١ - ثلاث طبعات في سنة ١٥٥٤ .

٢ - وواحدة في سنة ١٥٥٥ .

٣ - وأخرى في ١٥٧٣ ، ولكنها مصفاة (أي محذوف منها مواضع عدت غير مقبولة) .

٤ - وفي سنة ١٥٨٧ .

٥ - وفي سنة ١٥٩٥ .

٦ - وفي سنة ١٥٩٩ مرتين .

أي طبع منه ٩ طبعات في نصف قرن ، وهو لوقورن بغيره لكان نجاحا قليلا ، حتى أن طبعة ميلانو في سنة ١٥٨٧ وصفت الكتاب بأنه شبه منسي .

ويرجع السبب في قلة انتشاره الى كون « الدليل البابوي » Index « في سنة ١٥٥٩ منع نشر الكتاب وذلك في الفترة التي كان يمكن فيها أن يلقي الرواج الهائل . ويرجع السبب في وضعه على « دليل » الكتب المحرمة الى ما فيه من سخرية شديدة برجال الدين ومفاسدهم وكزازتهم وفجورهم . كما يرجع الى المعجزات الزائفة التي صاحبت ترويج صكوك الغفران في الفصل الخامس من الكتاب . وفي سنة ١٥٧١ صدر دليل التصفية « Index expurgatoire » وحدد المواضيع التي ينبغي حذفها في بعض الكتب الأدبية والدينية ومنها كتابنا . ويرد فيه أن الكتاب جدير بما لقيه من نجاح لأنه « تصوير حي ودقيق » لما يحاكيه بمهارة ولطف حتى أنه يستحق التقدير في النوع الذي ينتسب إليه . ويحدد بعد ذلك السطور والمواضع التي يجب حذفها في أية طبعة جديدة . وفي سنة ١٥٧٣ ظهرت طبعة مصفاة طبقا لهذه التعليقات وذلك في مدريد : فحذف الفصل الخاص بترويج صكوك الغفران ، وهو الفصل الخامس ، وكذلك الفصل القصير الخاص براهب الرحمة (الفصل الرابع) لأن العبارة الأخيرة فيه قد توحى بعلاقات فاحشة بين الراهب ولثريو.

وهذه الطبعة المصفاة أعيد طبعها في طرغونة سنة ١٥٨٦ ، وسرقسطة ١٥٩٩ ومدينة دل كامبو ، وبلد الوليد في سنة ١٦٠٣ ومنذ سنة ١٥٩٩ كان الكتاب يطبع ملحقا بكتاب « Galateo español » تأليف « Lucas Gracián Dantisco »

وهو كتاب في الأدب والتفكهة واستمرت هذه الطبعة الملحقه حتى نهاية القرن الثامن عشر . ولم تعرف اسبانيا غير هذه الطبعة المصفاة «Lazarillo Castigado» الى أن الغي التفتيش نهائيا في اسبانيا .

لكن النص الأصلي بقي يطبع خارج اسبانيا ، وحتى في البلاد التي كانت تخضع لسيطرة اسبانيا : فطبعه الناشر انطونيودى انطوني في ميلانو سنة ١٥٨٧ طبعة كاملة (لكن دون اضافات طبعة القلعة) مع القسم الثاني وطبعة بلانتان «Plantin» في أنفرس في عامي ١٥٩٥ و ١٦٠٢ في طبعتين كاملتين .

أما ترجماته فقد بدأت مبكرة :

(ا) فترجم الى الفرنسية لأول مرة في ليون سنة ١٥٦٠ ، مع نص فصول الجزء الثاني ونشرت ترجمة فرنسية أخرى في سنة ١٦٠١ في باريس ، مصحوبة بالأصل الاسباني . وكلتا الترجمتين تتناول النص الأصلي المطبوع سنة ١٥٥٤ دون أي حذف .

ب (وترجم الى اللغة الانجليزية في سنة ١٥٦٨ على يد ديفد ردلند ، ونجح نجاحا كبيرا ، فأعيد طبعه في سنوات ١٥٧٦ ، ١٥٨٦ ، ١٥٩٦ ، ١٦٢٤ ، ومع الجزء الثاني تأليف لونا في سنوات ١٦٣١ ، ١٦٣٩ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٥ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٠ .

ج (وترجم الى اللغة الفلمنكية ، ونشر في أنقرس ودلفت سنة ١٥٧٩ ، ثم في اترخت سنة ١٦٥٤ ، وفي امستردام سنة ١٦٦٩ .

د) وترجم الى الايطالية في سنة ١٦٠٨ ترجمة لم تنشر حتى الآن .

هـ) وأقدم ترجمة المانية معروفة ترجع الى سنة ١٦١٤ ولكنها لم تطبع الا سنة ١٦٥١ ، وهي ترجمة للأصل الكامل ، وفي سنة ١٦١٧ طبعت ترجمة عن النص المصفى ، وأعيدت هذه الترجمة المصفاة في السنوات ١٦٢٤ ، ١٦٢٧ ، ١٦٣٣ ، ١٦٤٣ .

٤ - تكملات « لثريودى تورمس » :

ونظرا الى قيمة الكتاب الرفيعة فقد كتبت له تكملات ، وأشهرها اثنتان : الأولى طبعت في أنفرس (بلجيكا) في سنة ١٥٥٥ دون ذكر لاسم المؤلف ، والثانية طبعت في باريس في سنة ١٦٢٠ ، وقد كتبها هـ . دى لونا « H. de Luna » على أن طبعة القلعة سنة ١٥٥٤ بما أضيف إليها من زيادات تعد نوعا من التزايد على الكتاب الأصلي . ومن هذه الزيادات لعل أهمها تلك التي أضيفت الى الفصل الخامس الخاص بترويج صكوك الغفران ، وهي زيادة تثير الضحك الكثير وفيها يتدخل لثريو ويلعب دورا أكبر مما في الطبعة الأصلية . وفي مرحلة اسكالونا يضاف لقاءان عرضيان ، أحدهما مع حبال ، والآخر مع قرون ، ويوحيان للأعمى بتعليقات مربية أشاعت القلق في نفس لثريو .

أما التكملة الأولى ، والتي أضيفت الى طبعة أنفرس الثانية (سنة ١٥٥٥) فلا ترقى الى مستوى الأصل ، تماما كما هو الحال في الجزء الثاني من دون كيخوته المزيف .

في هذه التكملة يستأنف المؤلف الحكاية من النهاية التي وصلت اليها حياة لثرو لما أصبح مناديا عموميا في طليطلة ، فيتخيل لثريو وقد زادت شهوته للمال ، وشجعتة على ذلك امرأة ، فالتحق بحملة موجهة ضد الجزائر سنة ١٥٤١ بصحبة فارس من فرسان طريقة القديس يوحنا . وأوشكت السفينة على الفرق ، فراح لثريو يعب من الخمر ، وفي اللحظة التي غرقت فيها شعر لثريو بأنه قد امتلأ من الخمر بحيث لم يبق في جسمه موضع لتجرع نقطة من ماء البحر . وبدلا من أن يسبح على سطح الماء سبح نحو القاع ، نحو ملكوت الأسماك ، وأدرك حينئذ أن الخمر أنقذ حياته كما تنبأ الأعمى . ثم أحس بأن الخمر تخلى عنه فأسلم أمره الى الله ، ففضل عليه بأن حوله الى سمكة تن . ثم يكون من حظه أن يلتقطه الصيادون ويعود الى أهله . لكن زوجه وكذلك رئيس القساوسة رودريجو دي ييبس « Rodrigo de Yepes » ينكرون هذا العائد المسكين ، ليس فقط لأنه سيتسبب في مضايقتهم ، بل وأيضا لأنه تغير تماما بحيث لم يعد من السهل تعرفه . فقد تحول لون بشرته بفعل الماء . وتقع للثريو بعد أن تحول الى سمكة عدة حوادث غريبة ، فيعقد صداقة مع القائد لثيو « ويقع في غرام مع الأميرة السمكة التن « لونا » . ويتحدث عن السمك التن على أنه شعب من الكفار « Los infieles atunes » ويجدد لثرو في اسلحة التن .

وقد أراد البعض أن يفهم من هذه الحكايات أنها ذات مغزى سياسي وتعلق بأحوال الاسبان الذين هاجروا الى أمريكا التي اكتشفوها منذ زمن قليل ، واجتذبتهم ثرواتها وامكانياتها الهائلة ، كما تشير تلميحا الى اليهود المرانين (اليهود

الاسبان الذين ارغموا على التنصر) وأحوالهم ومرارة نفوسهم ضد مضطهديهم .
ولكن من الصعب تفسير هذه التلميحات .

أما التكملة الثانية ، وهي التي كتبها لونا وظهرت في سنة ١٦٢٠ بباريس ،
فإنها تمتاز بمهاجمة محاكم التفتيش الاسبانية بكل عنف ، وبلهجة معادية للكهنة
قاسية . ومؤلفها ، هو خوان دى لونا « Juan de Luna » كان يعيش في
باريس ترجمانا للغة الاسبانية (١٦) ولكن من المرجح أنه كان مهاجرا الى فرنسا
بسبب أصله اليهودي أو لأنه مبتدع في الدين ولهذا لم يسمح في اسبانيا بتداولها علنا
ولم تتداول الا سرا .

وقد حرص دى لونا على الطابع الأصلي للثرو ، كما استفاد من الزيادات
الواردة في التكملة الأولى المطبوعة في أنفوس سنة ١٥٥٥ فتوسع في بعض المواضع ،
واختصر جدا في مواضع أخرى : فهو مثلا لا يكرس لمغامرات لثرو تحت سطح الماء
غير صفحة واحدة ، ولا يشير الى تحول لثرو الى سمكة تن . ولكنه يستغل مسألة
غوصه في الماء سليما بفعل الخمر . وينجو لثرو من البحر ، ويصبح ثريا معه
عشرون قطعة ، ويعود فيحمل سيفا قديما . ويقنعه أصحابه بأن يرفع دعوى زنا
على زوجته ، لكنه يخسر كل شيء حتى قميصه في هذه الدعوى التي أقامها على
رئيس القساوسة وخليلته (أعني زوجته) وإذا به يعود الى أحط درجات البؤس ،
فيرجع شحاذا ، ولكنه واع بمهنته ويصرخ « حياة الصعلكة والحياة الفلسفية (١٧)سيان»
ويتخذ مهنة حمال ، لكنه يلقي فيها الأمرين فكان كثيرا ما يغشه الزبائن أكثر مما
يغشهم هو . ويود الدودة الى قرينه التي ولد فيها . وينتهي الأمر به الى الوقوع في

وهو كتاب في الأدب والتفكهة واستمرت هذه الطبعة الملحقه حتى نهاية القرن الثامن عشر . ولم تعرف اسبانيا غير هذه الطبعة المصفاة «Lazarillo Castigado» الى أن الغي التفتيش نهائيا في اسبانيا .

لكن النص الأصلي بقي يطبع خارج اسبانيا ، وحتى في البلاد التي كانت تخضع لسيطرة اسبانيا : فطبعه الناشر انطونيودى انطوني في ميلانو سنة ١٥٨٧ طبعة كاملة (لكن دون اضافات طبعة القلعة) مع القسم الثاني وطبعة بلانتان «Plantin» في أنفرس في عامي ١٥٩٥ و ١٦٠٢ في طبعتين كاملتين .

أما ترجماته فقد بدأت مبكرة :

(ا) فترجم الى الفرنسية لأول مرة في ليون سنة ١٥٦٠ ، مع نص فصول الجزء الثاني ونشرت ترجمة فرنسية أخرى في سنة ١٦٠١ في باريس ، مصحوبة بالأصل الاسباني . وكلتا الترجمتين تتناول النص الأصلي المطبوع سنة ١٥٥٤ دون أي حذف .

ب (وترجم الى اللغة الانجليزية في سنة ١٥٦٨ على يد ديفد ردلند ، ونجح نجاحا كبيرا ، فأعيد طبعه في سنوات ١٥٧٦ ، ١٥٨٦ ، ١٥٩٦ ، ١٦٢٤ ، ومع الجزء الثاني تأليف لونا في سنوات ١٦٣١ ، ١٦٣٩ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٥ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٠ .

ج (وترجم الى اللغة الفلمنكية ، ونشر في أنقرس ودلفت سنة ١٥٧٩ ، ثم في اترخت سنة ١٦٥٤ ، وفي امستردام سنة ١٦٦٩ .

د) وترجم الى الايطالية في سنة ١٦٠٨ ترجمة لم تنشر حتى الآن .

هـ) وأقدم ترجمة المانية معروفة ترجع الى سنة ١٦١٤ ولكنها لم تطبع الا سنة ١٦٥١ ، وهي ترجمة للأصل الكامل ، وفي سنة ١٦١٧ طبعت ترجمة عن النص المصفى ، وأعيدت هذه الترجمة المصفاة في السنوات ١٦٢٤ ، ١٦٢٧ ، ١٦٣٣ ، ١٦٤٣ .

٤ - تكملات « لثريودى تورمس » :

ونظرا الى قيمة الكتاب الرفيعة فقد كتبت له تكملات ، وأشهرها اثنتان : الأولى طبعت في أنفرس (بلجيكا) في سنة ١٥٥٥ دون ذكر لاسم المؤلف ، والثانية طبعت في باريس في سنة ١٦٢٠ ، وقد كتبها هـ . دى لونا « H. de Luna » على أن طبعة القلعة سنة ١٥٥٤ بما أضيف إليها من زيادات تعد نوعا من التزايد على الكتاب الأصلي . ومن هذه الزيادات لعل أهمها تلك التي أضيفت الى الفصل الخامس الخاص بترويج صكوك الغفران ، وهي زيادة تثير الضحك الكثير وفيها يتدخل لثريو ويلعب دورا أكبر مما في الطبعة الأصلية . وفي مرحلة اسكالونا يضاف لقاءان عرضيان ، أحدهما مع حبال ، والآخر مع قرون ، ويوحيان للأعمى بتعليقات مربية أشاعت القلق في نفس لثريو .

أما التكملة الأولى ، والتي أضيفت الى طبعة أنفرس الثانية (سنة ١٥٥٥) فلا ترقى الى مستوى الأصل ، تماما كما هو الحال في الجزء الثاني من دون كيخوته المزيف .

في هذه التكملة يستأنف المؤلف الحكاية من النهاية التي وصلت اليها حياة لثرو لما أصبح مناديا عموميا في طليطلة ، فيتخيل لثريو وقد زادت شهوته للمال ، وشجعتة على ذلك امرأة ، فالتحق بحملة موجهة ضد الجزائر سنة ١٥٤١ بصحبة فارس من فرسان طريقة القديس يوحنا . وأوشكت السفينة على الفرق ، فراح لثريو يعب من الخمر ، وفي اللحظة التي غرقت فيها شعر لثريو بأنه قد امتلأ من الخمر بحيث لم يبق في جسمه موضع لتجرع نقطة من ماء البحر . وبدلا من أن يسبح على سطح الماء سبح نحو القاع ، نحو ملكوت الأسماك ، وأدرك حينئذ أن الخمر أنقذ حياته كما تنبأ الأعمى . ثم أحس بأن الخمر تخلى عنه فأسلم أمره الى الله ، ففضل عليه بأن حوله الى سمكة تن . ثم يكون من حظه أن يلتقطه الصيادون ويعود الى أهله . لكن زوجه وكذلك رئيس القساوسة رودريجو دي ييبس « Rodrigo de Yepes » ينكرون هذا العائد المسكين ، ليس فقط لأنه سيتسبب في مضايقتهم ، بل وأيضا لأنه تغير تماما بحيث لم يعد من السهل تعرفه . فقد تحول لون بشرته بفعل الماء . وتقع للثريو بعد أن تحول الى سمكة عدة حوادث غريبة ، فيعقد صداقة مع القائد لثيو « ويقع في غرام مع الأميرة السمكة التن « لونا » . ويتحدث عن السمك التن على أنه شعب من الكفار « Los infieles atunes » ويجدد لثرو في اسلحة التن .

وقد أراد البعض أن يفهم من هذه الحكايات أنها ذات مغزى سياسي وتعلق بأحوال الاسبان الذين هاجروا الى أمريكا التي اكتشفوها منذ زمن قليل ، واجتذبتهم ثرواتها وامكانياتها الهائلة ، كما تشير تلميحا الى اليهود المرانين (اليهود

الاسبان الذين ارغموا على التنصر) وأحوالهم ومرارة نفوسهم ضد مضطهديهم .
ولكن من الصعب تفسير هذه التلميحات .

أما التكملة الثانية ، وهي التي كتبها لونا وظهرت في سنة ١٦٢٠ بباريس ،
فإنها تمتاز بمهاجمة محاكم التفتيش الاسبانية بكل عنف ، وبلهجة معادية للكهنة
قاسية . ومؤلفها ، هو خوان دى لونا « Juan de Luna » كان يعيش في
باريس ترجمانا للغة الاسبانية (١٦) ولكن من المرجح أنه كان مهاجرا الى فرنسا
بسبب أصله اليهودي أو لأنه مبتدع في الدين ولهذا لم يسمح في اسبانيا بتداولها علنا
ولم تتداول الا سرا .

وقد حرص دى لونا على الطابع الأصلي للثرو ، كما استفاد من الزيادات
الواردة في التكملة الأولى المطبوعة في أنفوس سنة ١٥٥٥ فتوسع في بعض المواضع ،
واختصر جدا في مواضع أخرى : فهو مثلا لا يكرس لمغامرات لثرو تحت سطح الماء
غير صفحة واحدة ، ولا يشير الى تحول لثرو الى سمكة تن . ولكنه يستغل مسألة
غوصه في الماء سليما بفعل الخمر . وينجو لثرو من البحر ، ويصبح ثريا معه
عشرون قطعة ، ويعود فيحمل سيفا قديما . ويقنعه أصحابه بأن يرفع دعوى زنا
على زوجته ، لكنه يخسر كل شيء حتى قميصه في هذه الدعوى التي أقامها على
رئيس القساوسة وخليلته (أعني زوجته) وإذا به يعود الى أحط درجات البؤس ،
فيرجع شحاذا ، ولكنه واع بمهنته ويصرخ « حياة الصعلكة والحياة الفلسفية (١٧) سيان »
ويتخذ مهنة حمال ، لكنه يلقي فيها الأمرين فكان كثيرا ما يغشه الزبائن أكثر مما
يغشهم هو . ويود الدودة الى قرينه التي ولد فيها . وينتهي الأمر به الى الوقوع في

وسط الغجر والغجريات ، وما الغجر عنده الا القساوسة والرهبان واللصوص
الهاربون من السجون والأديرة .

ويكشف دى لونا عما عم اسبانيا من مفاسد بسبب محاكم التفتيش وكيف
بشت عيونها في كل مكان ، في الفنادق والأسواق ، بحيث كان الآلاف من الأبرياء
يحرقون أو يشنقون بوشايات من هؤلاء الجواسيس المجرمين .

ونجتري، بهذا القدر من تلخيص هاتين التكملتين ، لأنها ليستا موضوع بحثنا
في هذا التصدير .

٥ - هل لبعض المواضع في الكتاب أصول عربية ؟

وقد اتجه البحث منذ عشر سنوات أو يزيد قليلا ، عن أصول الكتاب الى
تلمسها أو تلمس بعض أحداثه في كتب عربية كما حدث بالنسبة الى كثير من
الحكايات الاسبانية في أواخر العصر الوسيط والقرنين السادس والسابع عشر .

وكان أول من عني بالبحث في هذا الاتجاه اثنان هما فرنسيسكو ايللا ، و
ريمو . فكتب أولهما (١٨) مقالا ظهر في سبتمبر - ديسمبر ١٩٦٥ بعنوان « مصدر
عربي لحكاية شعبية في كتاب لثرو » ، درس فيه حكاية وردت في كتاب
« المحاسن والمساوى » للبيهقي وترجمها الى الفرنسية ر. باسيه « R. Basset »
وعرفها ايللا عن هذه الترجمة الفرنسية .

وقبل ذلك بستة أشهر كتب ا . ريمو (١٩) « A. Rumeau » مقالة ظهرت في مارس - ابريل ١٩٦٥ بعنوان « تعليقات على « لثريو » : المنزل الكتيب المظلم » ، وفيها درس الى جانب الحكاية التي أوردها البيهقي ، الحكاية الشعبية المشابهة لها التي أوردها الأبشيهي في كتاب « المستطرف » وذلك في ترجمة فرنسية قام بها باسيه أيضا ، كما أشار الى رواية أخرى مقاربة .

ثم جاء البرتودل مونته في كتابه « مسار القصة الصعلوكية الاسبانية » (برشلونة ١٩٧١) فأخذ بهذا الرأي ، وأضاف معلومات جديدة عن هذه الحكاية فيما بعد ، وقدم ثبنا وافيا بالمراجع المتعلقة بالبحث في هذا الموضوع (٢٠) . ذلك أن حكاية المنزل الكتيب المظلم قد وردت أيضا في كتب اسبانية عديدة ظهرت في أوائل القرن السادس عشر (٢١) .

ثم جاء فرناندودي لاجرانخا (٢٢) في مقال له في مجلة الأندلس « Al-Andalus » سنة ١٩٧١ فأشار الى هذه الأبحاث السابقة ، ثم أورد النص العربي كما هو عند البيهقي والأبشيهي :

ب (أما البيهقي فقد ورد في كتابه « المحاسن والمساوى » مايلي :
« وقيل لابن رواح الطفيلي : كيف ابنك هذا ؟ قال : ليس في الدنيا شيء مثله ، ! رأيت نادبة خلف جنازة وهي تقول : واسيداه .! يذهب بك الى بيت ليس فيه ماء ولا طعام ، ولا فراش ، ولا وطاء ، ولا غطاء ، ولا سراج ، ولا ضياء ! فقال : ياأبة ! يذهبون به الى بيتنا (البيهقي : « المحاسن والمساوى » طبعة ابي الفضل ابراهيم ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ ، القاهرة سنة ١٣٨٠ / ١٩٦١) .

(ب) أما نص الأبشيهي (المتوفي سنة ١٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م) فهو :

« وقال (عثمان بن دراج الطفيلي) : مرت بنا جنازة يوما ومعني ابني ، ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول : الآن يذهبون بك الى بيت لافراش فيه ولا غطاء ولا وطاء ، ولا خبز ولا ماء . فقال : ياأبت ، الى بيتنا والله يذهبون » (شهاب الدين الأبشيهي « المستطرف في كل فن مستظرف » ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ ، القاهرة سنة ١٣٧٩ هـ) . ويصحح لاجرانخا الاسم الوارد في نص البيهقي بما يتفق مع ذلك الوارد في نص الابشيهي ، ويشير الى أن كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني (المتوفي سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) يخصص لابن دراج الطفيلي فصلا موجزا (ج ١٥ ص ٣٦ ، القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م) . ويروي بعض حكاياته ، وعلاقته الوثيقة مع أحد كتاب العباس ، ابن الخليفة المأمون ، الذي تمرد على عمه المعتصم وانتهى بالموت في السجن سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) . ومن بين ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني من حكاياته نفس الحكاية التي أوردها البيهقي (الف كتابه بين ٢٩٥ و ٣٢٠ هـ) ثم الأبشيهي ، وهاك نص كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني :

« قال ابن دراج : مرت بي جنازة ومعني ابني ، ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول : يذهبون بك الى بيت لافرش فيه ولا وطاء ، ولا ضيافة ولا غطاء ، ولا خبز ولا ماء . فقال ابني : ياأبه ! الى بيتنا والله يذهبون بهذه الجنازة . فقلت له : وكيف ، ويلك ؟ قال : لأن هذه صفة بيتنا » (أبو الفرج الأصفهاني : « الأغاني » ج ١٥ ص ٣٦ ، القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ - ١٩٠٦ م) .

كما يشير لاجرنهخا الى أن هذه الحكاية أوردها مؤلف أندلسي هو أبو بكر محمد بن عاصم ، الذي عاش بين سنة ١٣٥٩ م (٧٦١ هـ) وسنة ١٤٢٦ م (٨٣٠ هـ) في كتابه : « حقائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر » على الرواية التالية :

« وكان سائل يمشي ومعه ابن صغير ، فسمع امرأة تقول وهي خلف جنازة : يذهبون بك ، والله ، الى بيت ليس فيه غطاء ولا وطاء ، ولا غذاء ولا عشاء . فقال ابن السائل : ليتنا ، والله ، يذهبون ! » (أبو بكر بن محمد بن عاصم : « حقائق الأزاهر » طبع حجر فاس بدون تاريخ ، ص ٨٠) .

وبحسب الترتيب التاريخي لهذه المصادر العربية الأربعة فإن أولها هو كتاب « المحاسن والمساوى » الذي ألفه البيهقي ابان خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م) ، ويتلوه كتاب « الأغاني » ، لأبي الفرج الأصفهاني المولود في سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م والمتوفي في سنة ٣٥٦ هـ / ٩٣٢ م ، والثالث هو كتاب « حقائق الأزاهر » لأبي بكر محمد بن عاصم المولود في سنة ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م ، والمتوفي في سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م ، والرابع هو كتاب « المستطرف » للأبشيهي المولود في سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٨ م ، والمتوفي في سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م .

ولما كان كتاب « المحاسن والمساوى » للبيهقي لم يكن واسع الانتشار ، ولا يرد ذكره في المصادر الاسبانية ، بينما كتاب « الأغاني » للأصفهاني عرف في الأندلس قبل أن يعرف في الشرق لأن مؤلفه ، أبا الفرج ، قد أرسل الى الخليفة الحكم الثاني (الذي حكم من سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م الى سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) نسخة

صحيحة من كتابه بناء على طلب هذا الخليفة المستنير (٢٣) - فمن الممكن أن يكون انتشار هذه الحكاية في الأندلس إنما تم بفضل كتاب « الأغاني » وصارت من الحكايات الشعبية التي تتناقلها الألسنة . ولا بد أن ابن عاصم عرفها من تناقل الألسنة إياها لا عن نص « الأغاني » ، لأن النص الذي أورده مجَهَّل لم ينسب الحكاية الى ابن دراج ، فضلا عما فيه من تغيير وتحريف لنص « الأغاني » .

ولربما كان انتقالها الى اللغة الاسبانية عن كتاب ابن عاصم هذا ، خصوصا وأن وصفه صاحب الحكاية بأنه « سائل » يتفق مع حال لثرو .

تلك خلاصة مذكره لاجرنخا في مقاله المذكور . لكن لاتزال هناك مشكلة لم يتطرق اليها واحد من هؤلاء الباحثين ، وهي : كيف انتقلت هذه الحكاية الى اللغة الاسبانية ؟ .

نحن هنا بازاء ثلاثة احتمالات :

الأول : أن يكون مؤلف « لثريو » يعرف العربية ، وقرأها في كتاب ابن عاصم هذا .

والثاني : أن يكون كتاب ابن عاصم قد ترجم الى الاسبانية .

والثالث : أن تكون الحكاية تتناقل شعبيا على السنة الناس في الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وعنها نقلها مؤلف « لثريو » .

والاحتمال الأول ضعيف جدا ، لأننا لانرى أثر العربية في سائر هذا الكتاب ، « لثرو دي تورمس » .

والاجتهال الثاني أضعف من الأول ، لأنه لم يثبت حتى الآن أن كتاب « حقائق الأزاهر » لابن عاصم (ولا بالأحرى كتاب « الأغاني » أو كتاب « المحاسن والمساوى ») قد ترجم الى اللاتينية أو الاسبانية أو أية لغة أخرى ربما يعرفها مؤلف « لثريو » .

وبقي الاحتمال الثالث هو الوحيد المقبول من هذه الاحتمالات الثلاثة . وهو رأينا نحن .

٦ - القصة الصعلوكية :

وكتابنا هذا هو الذي افتتح به نوع خاص من القصص ولد في اسبانيا وسيطرت عليه أكثر من قرن من الزمان - هو المعروف بالقصة الصعلوكية « novela picaresca » نسبة الى الصفة « pícaro » أي الصعلوك أو الشخص الوضع الأصل ، الذي يتنقل بين المهن الحقيرة فيصير شحاذا ، وخادما ، ومتشردا ، وسارقا ، وفاتكا . . الخ . وقد بلغ هذا النوع من القصص في اسبانيا أوجه برواية « حياة قزمان الفارابي » تأليف ماتيو اليان (الجزء الأول سنة ١٥٩٩ ، والثاني سنة ١٦٠٤) .

ثم قلده بعد ذلك في بعض بلاد أوربا وأمريكا اللاتينية : في ألمانيا رواية « Simplicius simplicissimus » تأليف « Grimms » (سنة ١٦٦٨) ، وفي فرنسا رواية « Gil Blas » تأليف « Le Sage » (سنة ١٧١٥) - « Moll Flanders » تأليف « Daniel Defoe » (١٧٣٥) ، وفي إنجلترا ، رواية « Moll Flanders » تأليف « Daniel Defoe » (١٧٣٥) ، وفي إنجلترا ، رواية « Moll Flanders » تأليف « Daniel Defoe » (١٧٣٥) ، وفي إنجلترا ، رواية « Moll Flanders » تأليف « Daniel Defoe » (١٧٣٥) .

(سنة ١٧٢٢) ، ورواية «Tom Jones» تأليف فيلدنج «Fielding» (سنة ١٧٤٩) ، وفي المكسيك رواية «El Periquillo» تأليف فرنديث لثردى «Fernández Lizarandi» (سنة ١٨٣٠) .

وقد نشأ هذا النوع في ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية ساعدت على قيامه في اسبانيا في النصف الأول من القرن السادس عشر : ذلك أن القضاء على ثورة مدن قشتالة في ١٥٢١ قد أدى الى القضاء على تطلعات الطبقة الوسطى الناشئة وكرست ازدياد التجارة وروح الكسب التي اشتعل سعارها ، رغم اكتشاف أمريكا وما أدى اليه من ثراء فاحش وكرد فعل لذلك صار المثل الأخلاقي هو مثل الفارس النبيل «hidalgo» وهو الرجل النبيل المتمسك بقواعد الشرف ، ويرى في الشرف «honra» المثل الأعلى الأخلاقي . وقام في مقابلة الصعلوك «pícaro» وهو عكس الأول تماما :

بينما الأول من سلالة نبيلة رفيعة المكان ، نجد الصعلوك لا يتورع من ذكر سفالة سلالته (فليس بين أجداده الا اللصوص والنصابين ، والقوادين والعواهر واليهود) . وبينما النبيل يكره العمل ويزدري الربح ، فان الصعلوك يمارس أخس المهن ابتغاء الكسب ، حله ، وحرامه ، لا يهم . ولذا يدخل في خدمة أوزاع الناس . ويعمل حمالا ، أو شحاذا ، أولصا ، أو قوادا ، . . الخ .

لكن هذا الصعلوك «pícaro» هو مع ذلك حاد الذهن ، سريع الفطنة ، واسع الحيلة : فهو يسخر من « الشرف » و « النبلاء » ويكشف عن مفاسد « رجال الدين » وما ينطوي عليه سلوكهم من آثام وشرور ، ويبين أن



«الناجحين» في الحياة لم ينالوا نجاحهم الا بعد أن لوثوا ضمائرهم وأفسدوا نفوسهم وضربوا عرض الحائط بقيم الأخلاق . وهو يُعَرِّي زيف هؤلاء ونفاقهم

وكل هذه الخصال تتمثل في بطل كتابنا هذا : فلثريو يعمل صبياً لأعمى خبيث ، ويدخل في خدمة قسيس مفرط الكرامة ، ويعمل في خدمة سائس متكبر من أولئك « النبلاء » الذين أوقعهم في الشقاء تمسكهم المضحك بكبرياء « الشرف » ثم ينتقل عنه الى راهب متغلغل في أوساط الأثرياء ، ويصبح بعد ذلك مساعداً لمروج صكوك غفران دجال يذرع القرى ناصباً أحابيله لسُدْجِي الايمان . ويستعمله راعي هيكل في كنيسة لبيع لحسابه الماء في المدينة ، ويشغل مساعداً لشرطي ، لكنه يفرز من مخاطر المهنة ، وينتهي به الأمر في خاتمة المطاف الى تولي وظيفة أميرية ، فيصبح منادياً عمومياً في مدينة طليطلة ، وذلك بفضل « عطف » رئيس القساوسة الذي يتخذه دريئة لسترشهواته فيرغمه على الزواج من خليلته وهو يعلم تمام العلم علاقتها بهذا الرئيس للقساوسة ، ويصم أذنيه عن نائم أصحابه الذين يكشفون له عن هذه العلاقة ، وذلك أنه بهذه الوسيلة قد انضم الى زمرة الأخيار « ووصل » ولا عليه بعد ذلك أن وصل بهذه الوسائل القدرة - أفليست من الوسائل التي يستعملها جل « الناجحين » في الحياة ؟ !

ولكن ، لئن كان « لثريو » هو رائد القصة الصعلوكية ، فبينه وبين هذه في صورتها المتطورة ، بعض أوجه الخلاف : فلثريو ، مثلاً ، لا يندمج في وسط الصعاليك والشحاذين والغجر ، كما سيفعل قرمان الفارابي ، وإنما سادته ووسطه الذي اختاره هم الرهبان ورجال الكنيسة ونبيل مسكين ، والوحيد الصعلوك هو

الأعمى الذي بدأ به . كما أنه لايسر بما يحترفه من مهن ، بينما الصعلوك في القصة الصعلوكية النموذجية يطيب له امتهان المهن الوضيعة : حمال ، شحاذ ، سقا الخ . وهو ثالثا يتطلع الى وضع اجتماعي أفضل ، ويسعى للحاق « بأهل الخير » وأهل الخير هم أولئك الذين يعيشون عيشة « مستورة » كما يقال الآن ، بفضل الكفاف من المال . كذلك يتميز « لثريو » من « قزمان » و « البوسكون » Buscón « ببساطة تفكيره وبنوع من البراءة الفكرية بعكس « قزمان » و « البوسكون » اللذين يفيضان في الحكم والأمثال ، بل والتأملات الدينية العميقة والفلسفية .

٧ - الواقعية في قصة « لثريودى تورمس » :

وقد التزم مؤلف كتابنا هذا الواقعية الصادقة على عصره :

أ- فهو محدد من حيث الزمان تحديدا دقيقا ، اذ يشير الى أحداث تاريخية هامة معركة جربه (جزيرة جربة في تونس) التي قادها د . جارشيا دى توليدو في سنة ١٥١٠ « D. García de Toledo » ضد تونس والأتراك ، وانتهت بهزيمة منكرة للحملة الاسبانية ، أو تلك التي أرسلها مجلس الكورتيس في سنة ١٥٢٠ ، وأخيرا حملة د . هوجودى مونكادا التي استولت على جربه في سنة ١٥٢٠ .

ب - انعقاد الكورتيس « Cortes » في طليطلة أما في سنة ١٥٢٥ ، أو في سنة ١٥٣٩/٨ ، والأخير هو الأرجح لأنه تم وسط احتفالات ضخمة أقيمت بمناسبة عقد كارلوس الخامس لهدنة نيس .

ج - الامبراطور الظافر كارلوس الخامس .

د - الاشارة المبهمة الى أسر فرانسوا الأول ملك فرنسا ، بعد معركة بافيا ،
وقد استمر هذا الأمر كما ذكرنا من فبراير سنة ١٥٢٥ الى فبراير سنة ١٥٢٦ .

٢ - وهو محدد جغرافيا بكل دقة ، اذ تجري الأحداث في المدن والقرى التالية
شلمنقة ، الموروكس ، سكالونا ، مكيدا ، طليطلة .

وفيه تفصيلات محددة مثل الاشارة الى تمثال حجري لثور على جسر شلمنقة ،
والى غنى نواحي المروج « Almorox » بالكروم والانبذة ، والى العقود في
شوارع اسكالونا ، والى حي كوستانيا في بلد الوليد ، والى مواضع كثيرة في نواحي
طليطلة تدل على معرفة جيدة بها .

٣ - وفيه اشارات دقيقة الى بعض العادات والأعراف الخاصة ببعض المناطق
مثل أكل رؤوس الضأن في أيام السبت في طليطلة .

كذلك بعض الاجراءات أو القرارات الصادرة من مجالس البلديات مثل القرار
الخاص بالشحادة ، عدم السماح بمزاولتها الا بعد اذن وامتحان لاحوال طالبها
الاجتماعية ، وبشرط أن يكون ذلك في بلده ، وتبعا لذلك تحريمها على الأجانب في
البلد .

٤ - ووصف الأحوال الاجتماعية (٢٤) في اسبانيا في ذلك الوقت - بل وفي كل
وقت - واضح القسّمات صادق كل الصدق ، وله نظائره في سائر البلدان في كل
تواريخها .

١ - الاعمى الذي يكتسب من قراءة الأدعية ، ويقوده صبي عفريت يمارس ألوان الفراهات الصيبانية الشيطانية معه .

٢ - المولد البائس المولود لابوين شريرين ، وما يؤدي به ذلك الى حياة الرذائل والتشرد والألاعيب .

٣ - الشح المفرط عند رجال الدين ، وتصرفاتهم بعكس مايدعون اليه في مواعظهم : فلا احسان ، ولا رحمة ، ولا تعفف .

٤ - الكبرياء المدمرة للمنحدرين من سلالة نبيلة ، والتمسك المضحك بمظاهر زائفة لاتتفق مع أحوالهم الراهنة وعدم قدرتهم على التكيف مع التحولات الاجتماعية.

٥ - الاتجار بأمور الدين ، وادعاء الكرامات والمعجزات لترويج بضاعة رجال الدين المزجاة .

٦ - انتشار الفجور والفاحشة بين رؤساء الكهنوت .

٧ - الاعتقاد بأن ثم بيوتا مسكونة ، أي يقيم بها العفاريت والجن ، وهذه الخرافة موجودة كثيرا في الأدب العربي ، وخصوصا في ألف ليلة وليلة ، ولا تزال حتى اليوم شائعة جدا ليس فقط في الريف في مصر وكثير من البلاد العربية ، بل وفي المدن . ونجدها كثيرا في الأدب الرومانتيكي الألماني (راجع مقدمة ترجمتنا لرواية « اندين » لفوكيه) .

لبناء الفني :

والمؤلف يتخذ في قص الحكاية ضمير المتكلم ، وكأنها ترجمة ذاتية له . فهل ثم ضرورة أملت على المؤلف اتخاذ هذا الأسلوب ؟

هذا ما يؤكد امركو كاسترو (٢٥) اذ يذهب الى أن طبيعة الحكاية نفسها هي التي حملت المؤلف على سردها في صيغة المتكلم بوصفها ترجمة ذاتية . ذلك أن المؤلف وقد « تناسى اسبانيا الماجدة الفاتحة في عهد كارلوس الخامس ، فان الاهتمام تركز الآن على شخص متواضع ، خاوم من القيم المقدرة عند هذا العالم ، وان كان مليئا بالشعور بشخصه المجرد وبارادة المحافظة عليه في مواجهة الظروف القاسية غير المواتية . فلما كانت ترجمة حياة شخص صغير المنزلة جدا مثله تفتقر الى كل تبرير . . . فقد كان على المؤلف أن يتنحى جانبا وأن يترك الكلام لشخصية خلقها بخياله . فأسلوب الترجمة الذاتية تتمشى تماما مع عدم ذكر المؤلف له (٢٦) . » .

لكن مارسيل بتايون لا يرى هذا الرأي ، أعني أن يكون الموضوع هو الذي فرض صيغة المتكلم في « لثريو » ، وأيد ذلك بأن كثيرا من الحكايات التي كتبت في اسبانيا حوالي سنة ١٥٥٠ قد صيغت أيضا في صيغة المتكلم رغم اختلاف أنواعها : نجد ذلك في حكاية بني سراج « Abencerraje » تأليف « Villegas » وفي القصة التي وضعها « Núñez de Reinoso » استنادا الى قصة يونانية من تأليف « Achille Talios » ثم خصوصا في « الرحلة في تركيا » المنسوبة الى الطبيب اندرس لاجونا « Andrés Laguna » (٢٧) .

يضاف الى ذلك كتاب « الحمار الذهبي » تأليف الكاتب الخطيب الفيلسوف الروماني « Lucius Apuleius » (حوالي ١٢٥ - ١٨٠ م) وقد كان مترجما الى الاسبانية في ذلك الوقت ، بقلم لوبث القرطاجني « López de Cartagena » ويتفق الجميع على أنه أثر قطعا في كتابنا هذا ، وقد صيغ أيضا بصيغة المتكلم ، ويضاف أيضا « كتاب الحب الطيب » « Libro de Buen Amor » لرئيس القساوسة في هيتا « Arcipreste de Hita » .

واذن فصيغة المتكلم كانت مألوفة في كثير من القصص المنتشرة في اسبانيا في ذلك العصر . فليس « لثريو » اذن ابن عذرتها ، ولا بدعا بينها ، وانما يتابع نوعا أدبيا شائعا . وعلى حد تعبير ماركيز بيانوف « Márquez Villanueva » في نقده لدراسة مارسيل باتايون : أن اسلوب الترجمة الذاتية هو الاكتشاف الكبير الذي قام به العقد الخامس من القرن السادس عشر (٢٨) .

ونضيف نحن الى ذلك أن أسلوب « المقامات » عند الهمذاني والحريري ومن ضرب على قالبهما هودائما اسلوب الحكاية بصيغة المتكلم . والأشباه كثيرة وبارزة بين حكايات أبي زيد السروجي في مقامات الحريري ، وبين ألعايب لثريو . وعسى أن تتاح لنا الفرصة لدراسة هذا الموضوع دراسة مفصلة ، خصوصا ، و« مقامات الحريري » كانت معروفة جيدا وواسعة الانتشار في اسبانيا (الأندلس) ومن الأمور البالغة الدلالة في هذا المجال أن خير شراحها أندلسي من شريش .

وحسبنا هذا القدر في تقويم هذه التحفة الرائعة من تحف الأدب الاسباني
التي ترجمناها (٢٩) ها هنا الى العربية لأول مرة ، والتي تعد على صغر حجمها من
روائع للأدب العالمي .

الدكتور عبد الرحمن بدوي

باريس - الكويت ١٩٧٦ .

حياة لثريو دي تورمس

وحظوظه ومحجته

تأليف

كاتب مجهول

ترجمه عن الاسبانية وزوده بمقدمة وتعليقات

الدكتور عبد الرحمن بدوي

استهلال

أرى من الخير أن يبلغ علم الكثير من الناس أمور ناهية الذكر تصادف أنها لم يسمع بها ولم يشهد مثلها ، والا تظل مدفونة في قبر النسيان فقد يحدث أن يقرأها أحد الناس فيجد فيها ما يلائم ذوقه ، وان تمتع آخرين لا يتعمقونها . وفي هذا المجال يقول بليزوس (٣٠) أنه لا يوجد كتاب قد خلا من شيء مفيد ، حتى لو كان سيئا ، خصوصا والاذواق ليست كلها واحدة ، اذ من الناس من يهلك نفسه ليأكل ما لا يأكله غيره ، حتى أننا نشاهد كثيرا من الاشياء يزدريها البعض ولا يزدريها البعض الآخر . لذا لا ينبغي أن نمزق كتابا أو نقضي عليه قبل أن نضعه في متناول الجميع ، اللهم الا اذا كان غيضا كل الغرض ، خصوصا ان كان ليس من شأنه أن يضر بأحد ، وكان فيه بعض الفائدة . ولو لم يكن الامر هكذا لكان قليلون جدا هم الذين يكتبون من أجل شخص واحد ، لان هذا يكلف مشقة ، وهم يتحملونها ابتغاء أن يجازوا عنها ، لا بالمال ، بل من أجل أن يرى الناس مؤلفاتهم ويقرؤنها ، وانما يدحونها حسبا فيها من فضل ان كان فيها فضل . وفي هذا المعنى يقول توليوس (شيشرون) : « الشرف ينهض بالفنون » (٣١) .

من ذا يظن أن الجندي الذي يتقدم لتسلق السور هو امرؤ يكره الحياة ؟ لا أحد طبعا ، ان الشهوة الى المديح تجعله يعرض نفسه للخطر . وهكذا الامر في الفنون

والآداب . والكاهن يعظ موعظة حسنة ، ويود كثيرا نجاة النفوس ، لكن اسأل فضيلته هل يغضب اذا قيل له : « أوه ! كم كان وعظك رائعا يا صاحب الفضيلة ! » وهذا فلان من الناس اخفق في المباراة تماما ، ومع ذلك فانه يعطي لأمتة للمهرج الذي يمدحه بأنه سدّد رماحا جيدة . فما عسى ان يعطيه لو كان هذا حقا ؟ .

وكل شيء يسير على هذا النحو . وأنا أيضا - واعترف عن نفسي بأني لست أكثر قداسة من جيرانى - لن أغضب اذا نالت هذه التفاهة (٣٢) ، التي أكتبها بأسلوب غليظ ، رضا كل الذين يلذ لهم قرائتها ، واذا رأوا منها ان في وسع الانسان ان يعيش في وسط كل هذه الحظوظ ، والمخاطر ، والمحن .

لهذا أتوسل اليك ياسيدي ان تتفضل بقبول هذه الهدية المتواضعة من يد من كان يود أن تكون هديته أثمن لو كانت قدرته تعادل رغبته . ولما كنت تطلب مني ان اكتب واحكي قصتي فقد رأيت ان الافضل هو ان آخذها لامن وسطها بل من بدايتها ، حتى تعرف شخصي معرفة كاملة ، وحتى يعلم أيضا اولئك الذين ورثوا اموالا نبيلة انهم لا يستحقون منها الا القليل ، لان الحظ كان محاييا لهم ، وما اكثر الذين وصلوا الى مرفأ الامان بجهودهم واجتهادهم ، على الرغم من معاكسة الحظ لهم !

الفصل الاول

لثرو يروي حياته وابن من كان

اذن فلتعلم قبل كل شيء ، ياسيدي ، انهم يطلقون علي اسم : لثرودى تورمس ، ابن توما جونثالث وانطونا بيرث ، وهما من تخرس ، وهي ضيعة قريبة من شلمنقة . ولقد ولدت في نهر تورمس ، ولهذا السبب لقبت بهذا اللقب . وهذا ماحدث : لقد كان أبي - غفر الله له ! - مكلفا بالقيام بالطحن في طاحونة (٣٣) قائمة عند حافة النهر حيث كان طحانا منذ أكثر من خمسة عشر عاما . وذات ليلة كانت أمي في الطاحونة ، وهي حبل بي ، فجاءها المخاض ووضعتني هناك ، حتى ليتمكنني القول أنني ولدت حقا في النهر .

وبعد ذلك ، ولما كانت سني الثامنة ، اتهم ابي انه قد أجرى بضعة اختلاسات (٣٤) خبيثة (٣٥) في زكائب من جاؤوا للطحن في الطاحونة . فقبض عليه ، واعترف ، ولم ينكر شيئا ، وتعذب من اجل العدالة . وارجو ان يكون في المجد ، لأن الانجيل (٣٦) يسميهم طوباويين .

وفي ذلك الوقت كانوا يجهزون (٣٧) جيشا ضد المغاربة ، فالتحق به أبي وكان قد نفى بسبب ذلك الحادث ، وصار سائسا لفارس ، وهناك قضى نحبه هو وسيده خادما أميننا له .

وامي الارملة ، وقد وجدت نفسها بغير زوج ولا مأوى ، قررت التقرب من أهل الخير حتى تكون في صحبتهم (٣٨) فجاءت للاقامة في المدينة ، واستأجرت بيتا صغيرا وراحت تطهو الطعام لبعض الطلاب ، وتغسل ثياب سياس (٣٩) رئيس حديقة المجدينا . ولما كانت تتردد على الاسطبلات ، فقد تعرفت الى رجل مغربي (٤٠) ، من أولئك الذين يعالجون الحيوان . وكان هذا الرجل يأتي أحيانا الى بيتنا ويخرج منه في الصباح . وفي أحيان أخرى كان يأتي الى بابنا نهارا جهارا ، بدعوى شراء بيض ، ويدخل البيت . وفي بداية الامر كنت أغضب لمرآه ، وكنت أخاف منه بسبب لونه وقبح وجهه ، لكنني لما لاحظت ان الطعام كان يتحسن مع مجيئه ، انشأت أحبه حبا جما ، لانه كان يأتي معه دائما بالخبز ، وشرائح اللحم ، وفي الشتاء بالحطب الذي كنا نستدفيء به .

واستمرت هذه الضيافة وتلك المعاشرة حتى انتهى الامر بأمي ان أعطيتي طفلا اسمر لطيفا كنت اساعد في هدهدته وتدفتته . واذكر ان رفيق امي الاسود كان يلعب مع الطفل ، فلما شاهد أمي وأنا ابيض والآخر اسود ، احتمى بأمي وقال وهو يشير اليه باصبعه : « ماما ! هذا الغول ! » فأجاب المغربي ضاحكا : يا ابن القبيحة ! « وعلى رغم حداثة سني فقد سجلت كلمات اخي الصغير هذه وقلت في نفسي : « كم من الناس في العالم يهربون من غيرهم لانهم لا يرون انفسهم ! » .

وشاء سوء حظنا أن وصل الى مسامع مدبر البيت نبأ تردد سعيد (وهذا هو اسم المغربي) على بيتنا . فقام بتحقيق اكتشاف منه ان المغربي كان يسرق في المتوسط نصف الشعير الذي كان يصرف له من أجل الحيوان ، والردة والخشب ،

والامشاط ، والاغطية ، ويضع عمدا فرش الخيول ، ومناديلها ، واذا لم يجد شيئا آخر كان ينتزع حدائد سنايك الخيل . وكل هذا كان يأتي به الى أمي ، لغذاء أخي الصغير . فلاندهش اذن من الكاهن او الراهب حين يسرق احدها من الفقراء ، والآخر من ديره ، من أجل سيداته التقيات ولمساعدة بعض البيوت ، وهانحن قد رأينا الحب يدفع عبدا بائسا الى أن يفعل مثل هذا . وثبتت كل هذه التهم التي قلتها عليه ، وأكثر منها ، لانهم استجوبوني وهددوني ، وأنا طفل فأجبت وكشفت عن كل ما أعرف ، حتى بعض الحدائد التي بعثها - بأمر من أمي - لاحد الحدادين .

حتى أنهم جلدوا رفيق أمي (٤١) وكوه (٤٢) ، وبالإضافة الى المائة جلدة المعتادة التي ضربوا بها أمي أمرتها العدالة أمرا صريحا بعدم دخول بيت رئيس الطريقة ولا استبقاء سعيد البائس في بيتها .

وحتى لا تلقي بالحبل بعد المقلاة (٤٣) تماكنت المسكينة نفسها ونفذت الحكم ، ودرا لكل خطر وفرارا من السنة السوء ، ذهبت لخدمة أولئك الذين كانوا يعيشون في فندق سولانا . وهناك تحملت آلاف المزعجات وأتمت تربية أخي الصغير حتى صار يستطيع المشي . أما أنا فقد صرت فتى يافعا يستطيع الذهاب لاجتماع الخمر الى الزبائن والشموع والاشياء الاخرى التي كانوا يطلبون مني احضارها .

وفي ذلك الوقت نزل بالفندق رجل اعمى وجدني صالحا لقيادته ، فطلبني من أمي . فأوصته بي خيرا ، وقالت عني أنني ابن رجل من اهل الخير ، مات في سبيل الدين في يوم جربة ، وانها تعتقد ان الابن لن يكون تكذيبا لابييه ورجته ان

يحسن معاملتي ، ويعني بي ، لاني يتيم ، فأجابها بأنه سيفعل ذلك ، وانه سيعاملني معاملة الابن ، لا معاملة الخادم . وهكذا بدأت في خدمة وقيادة سيدي الجديد العجوز .

وبعد أن اقمنا في شلمنقة بضعة أيام ، قرر سيدي الرحيل بعد أن وجد الكسب قليلا . وحينما اوشكنا على السفر ذهب لرؤية أمي . فبكا كلانا ومنحتني بركتها قائلة : يا بني انا اعلم انني لن اراك بعد الآن ! فاعمل على أن تكون رجل خير ، والله يهديك . لقد رببتك وادعتك عند سيد صالح . فساعد نفسك . ومضيت الى سيدي الذي كان ينتظرني .

وخرجنا من شلمنقة . ولما بلغنا الجسر ، وكان عند مدخله تمثال حيوان من الحجر له شكل ثور تقريبا ، طلب مني الاعمى الاقتراب من الحيوان ، وحين صرت قريبا جدا منه قال لي : « لثربو ! الصق اذنك بهذا الثور تسمع صوتا عظيما يتردد فيه . » فتقدمت ببساطة ظانا ان مايقوله صادق ، فلما شعر بأن رأسي لصق بالحجر ، مد ذراعه بشدة وصكني بعنف في الثور الشيطان ، حتى ان الم ضربة قرنه بقي أكثر من ثلاثة أيام . وقال لي : « يامغفل ! - اعلم أن صبي الاعمى يجب أن يكون اذكى من الشيطان » . وضحك كثيرا من هذه المزحة . وبدأ لي في هذه اللحظة انني استيقظت من الغفلة التي كنت غارقا فيها انا الطفل ، وقلت في نفسي : « انه على حق ، وما دمت وحدي فيجب علي أن افتح عيني ، وأفكر كيف أتخلص . »

وبدأنا نسلك سبيلنا ، وفي أيام قليلة علمني لهجة المهنة (٤٤) . ولما رأيته ذكيا ، اغتبط لذلك أيما اغتباط . وقال لي : «لاذهب عندي ولا فضة لأعطيك اياه ، لكنني أستطيع أن أعطيك الكثير من النصائح التي تعلمك كيف تعيش . » وقد فعل حقا ، لأنه - بعد الله - هو الذي وهبني الحياة ، ورغم أنه كان أعمى ، فقد نورني وأرشدني السبيل في الدنيا . ويلذ لي ياسيدي أن أحكي لك هذه الصبانيات ، لاشهدك كم لاسافل الناس من فضل في الارتقاء ، وكم هو من العار على أولئك الذين ارتقوا ان ينحطوا ! .

ولنعود الى صاحبنا الاعمى وشؤونه اقول لك ياسيدي ، انه منذ خلق الله العالم ، فانه لم يخلق مثله مكرراً ودهاء . لقد كان في مهنته نسرا : فقد كان يحفظ أكثر من مائة موعظة يلقيها بلهجة خاشعة رصينة رنانة جدا ، حتى انه كان يجعل الكنيسة التي يلقيها فيها ترن اعلى رنين ، واصطنع سمنا ووجها في غاية التواضع والتقوى دون أن يأتي ، مثل غيره ، بحركات وتشنجات بفمه وعينه . وفضلا عن ذلك فقد كانت له آلاف الطرق الاخرى لاستخلاص المال . فكان يزعم أنه يعرف مواعظ وخطبا وعظية لكل المناسبات ، وللنساء العواقر ، واللواتي يأتيهن المخاض ، واللواتي غير موفقات في زواجهن ويردن جلب محبة ازواجهن هن ، أما الحبليات فكان يتنبأ هن بأنهن سيلدن صبية أو بنات . وفي الطب كان يزعم أنه يعرف ضعف مايعرف جالينوس فيما يتعلق بالاضراس ، والاصابة بالاغماء ، وداء الرحم . ولم يكن احد يشكوله علةً حتى يقول له على الفور : « افعل هذا أو افعل ذاك ، اقطف هذه الورقة ، وخذ هذا الجذر . » وبهذه الوسيلة كان الناس يعدون وراءه ، خصوصا السيدات ، وقد كن يعتقدن كل مايقوله هن . ولهذا كان

يستدرمنهن مكاسب كثيرة ، بالوسائل التي ذكرتها ، حتى أنه كان يكسب في الشهر أكثر مما يكسبه مائة أعمى في السنة .

لكن ينبغي عليك ان تعلم ياسيدي أنه على الرغم من كل ما كان يكسبه هذا الاعمى ويجمعه ، فاني لم أشهد ابدا رجلا بخيلا شحيحا مثله ، الى حد أنه قتلني جوعا ، ولم أكن احصل على نصف ماهو ضروري لي . والواقع انني لو لم اقدر على اعانة نفسي ، بفضل مهارتي وواسع حيلتي ، لكنت قد مت جوعا عدة مرات . لكن بالرغم من كل علمه ويقظته فقد أفسدت عليه حيله ، انني كنت دائما ، أو في أغلب الاحوال ، أنصب له فخاخا شيطانية ، سأروي بعضها ، وان لم تنته كلها في صالحني .

كان يحمل الخبز وكل ما يجمعه في خرج من القماش ، تغلق فتحته حلقة من الحديد ذات قفل ومفتاح ، واذا وضع فيه شيئا ، أو سحب منه أي شيء ، كان شديد الانتباه وقاسي الحساب الى حد أن كل قوة العالم لم تكن لتكفي لمغالطته في أقل القليل . والفئات القليل الذي كان يعطيني كنت آخذه أو التهمه في أقل من لقمتين ، ثم اذا ما أغلق القفل وخلا من كل هم ظانا أنني مشغول بشيء آخر ، فاني كنت أفصد الحبل النحيل من موضع للخياطة في جانب الخرج كنت كثيرا ما أفكه وأخطه ، فاستخلص الخبز وشرائح جيدة من الشحم والمقانيق من دون حساب . وهكذا كنت أختار اللحظة المناسبة لاعادة الطردة (٤٥) كما في لعبة البرجاس ، بل الحفرة الشيطانية التي حفرها لي عمي الأعمى الشرير .

وكل ما استطعت قرضه واختلاسه كنت أحوله الى أنصاف ييضاوات (٤٦) ، وحين كان الناس يطلبون من الاعمى ان ينشد شيئا ويلقون اليه ببيضاء ، كنت

التقطها في فمي بمجرد أن يبدو عليهم أنهم يمدون اليه أيديهم بها ، وبدلا منها أضع نصف بيضاء ، حتى أنه بالسرعة التي كان الاعمى يمد بها يده ، كانت العطية تصل اليه - بفضل صرفي - وقد نقص نصف قيمتها . وكان الاعمى الشرير يشكو ، لأنه عند اللمس كان يدرك في التوأن البيضاء لم تكن كاملة . ويقول لي : « أي شيطان هذا ! منذ أن صحبتني والناس لا يعطونني الا أنصاف بيضاوات ، بينما كانوا في السابق كثيرا ما يعطونني بيضاء كاملة ، بل أحيانا مرابطيا . لابد أنك أنت السبب في هذا النحس . »

ولهذا كان يختصر مواعظه الى أقل من نصفها ، وأمرني بأن أشده من طرف رداءه حالما ذهب من طلب منه اللقاء ، وحالما نهته ، كان يستأنف النداء قائلا : « من ذا يريد مني اللقاء هذه الموعظة أو تلك ؟ » كما ينادي العميان عادة .

وحين كنا نأكل كان من عادته أن يضع بالقرب منه كوزا صغيرا من النبيذ . وكنت أنا في أول الأمر آخذه بمهارة وخفة ، وبعد أن أمنحه قبلتين صامتتين كنت أعيده الى مكانه . لكن هذه الحال لم تستمر طويلا ، لأنه كان يعد جرعاته فيمين له ماضاع ، ومن ثم لم يكن يترك الكوز ، بل يمسكه بقوة في يده حفاظا على نبيذه . ولكن عبثا : اذ لا يوجد حجر مغناطيس يقدر مثلي على اجتذاب النبيذ بواسطة عود طويل من الشعير أختير لهذا الغرض ، كنت أدخله في فم الكوز وأمتص به النبيذ وأستودعه مكانا أمينا . لكن الخائن كان من الدهاء بحيث شعر بي من غير شك ومن ثم غير خطته فراح يضع الكوز بين ركبتيه ويسده بيده ، حتى تمكن من الشرب في أمان . ولما كنت قد تعودت على النبيذ فقد ثارت ثائرتي لشربه ، لما رأيت أن حيلة عود الشعير لم تعد نافعة ، خطر ببالي أن أضع في قاع الكوز

نافورة صغيرة أو ثقباً ضيقاً جداً ، وكنت أسده بلطف بواسطة قرص رقيق من الشمع . وفي وقت تناول الطعام ، كنت أنزلق بين ساقي الاعمى المسكين للاستدفاء بناره الهزيلة ، متظاهراً بأنني أشعر بالبرد : وكان الشمع ينصهر على هذا الدفء ، فتبدأ النافورة الصغيرة في صب القطرات في فمي الذي كنت أحكم وضعه بحيث لاتضيع قطرة واحدة . وكان يندهش ، ويلعن ، ويرمي الشيطان بالكوز والنبيد ، لأنه لم يفهم جلية الأمر . وكنت أقول له « أنت لاتستطيع ، يا عم ، أن تدعي أنني أشرب نبيذك ، لأنك لاتترك الكوز » .

لكنه أدار الكوز مراراً وجسه ، الى أن اكتشف النافورة وتنبه الى خدعتي ، ومع ذلك تظاهراً بأنه لم يدرك شيئاً . وفي اليوم التالي ، وبينما الكوز يقطر في فمي ، دون أن أشعر بأن مصيبة تنتظرني ولا أن الاعمى الشرير قد اكتشفني ، وكنت كالعادة جالسا ووجهي متجه نحو السماء ، وعيناى مغلقتان لمزيد من الاستمتاع بالشراب اللذيذ - شعراً لاعمى البائس بأن الفرصة قد حانت للانتقام مني ، واذا به يرفع بيديه هذا الكوز العذب المر ويهوي به بكل قوة على فمي ، حتى أن لثرو المسكين ، الذي لم يتوقع شيئاً من هذا ، بل كان مسروراً غير مهموم ، إعتقد حقا أن السماء بكل ما فيها قد إنهارت عليه . وكانت الصدمة من الشدة بحيث أصمتني وجعلتني مغمى عليّ ، وكانت الضربة قوية الى حد أن قطع الكوز دخلت في فمي وفي وجهي ، ورضته في كثير من المواضع ، وكسرت الاسنان التي فقدتها منذ ذلك الحين .

ومنذ تلك الساعة أضمرت الشر للاعمى الشرير ، وعلى الرغم من أنه لاطفني ، وأهدأني واعتنى بيّ ، فقد أبصرت جيداً أنه كان مسروراً بعقابه القاسي .

وغسل بالنبيذ التمزقات التي أصابنتي بواسطة قطع الكوز ، وقال لي وهو يبتسم :
« ماذا يبدو لك يا لثرو ؟ ما أمرضك قد شفاك وعافاك . » وأمثال هذه الملاحظات
التي لم تكن في نظري كذلك .

ولما شفيت نصف شفاء من جراحي الحزينة ورضوضي ، ورأيت أن الاعمى
القاسي سيستغني عني بعد قليل من أمثال هذه الضربات ، أردت الاستغناء عنه ،
لكنني لم أفعل ذلك على الفور ، مفضلاً انتظار فرصة أكثر أمناً وفائدة . وحتى
لو كنت أردت تهدئة حقدتي عليه وغفران ضربة الكوز ، فإن مانالني من سوء
معاملة هذا الاعمى الشرير منذ ذلك اليوم ، لم يكن ليسمح لي بذلك ، لأنه بدون
أي سبب كان يضربني ويقشر رأسي . وإذا سأله أحد الناس لماذا يعاملني هذه
المعاملة السيئة فإنه كان سرعان ما يحكي حكاية الكوز ، ويقول : « لعلك تظن
صبيي هذا بريئاً ؟ اذن فاسمع لي ، وخبرني هل يستطيع الشيطان نفسه أن يصنع
صنيعه ؟ . » والذين كانوا يصغون اليه كانوا يشيرون إشارة الصليب قائلين : أنظر !
من كان يظن كل هذا الخبث في ولد صغير كهذا ؟ » وكانوا يضحكون كثيراً من
حيلتي ويقولون للاعمى : « عاقبه ، عاقبه ، والله يجزيك خير الجزاء . » وكان
هذا يشجعه فلا يفعل غير ذلك . لكنني كنت أقوده دائماً من أسفل الطرق ، عمداً
ورغبة في إيذائه . فإن كان هناك أحجار ، اقتدته خلال الاحجار ، وإن كان
هناك طين ، إقتدته خلال الطين ، وفي وسطه ، وعلى الرغم من أنني لم أكن
أمشي في المكان الجاف ، فقد كان يلذ لي أن أفقأ عين نفسي كما أفقأ عينين لمن كان
بغير عينين . لكنه كان يلكر قفاي بطرف عصاه ، حتى إمتلاً رأسي أوراما وتقشر
من صنع يديه ، وعبثاً كنت أقسم له بأنني لم أفعل ذلك عن خبث ، بل لأنني لم

أجد طريقا أحسن ، فكل هذا لم يفدني في شيء ولم يكن هو يصدقني : فلكم كان هذا الغدار مرهف التقدير حصيفا !

وحتى تدرك ياسيدي ، مدى ذكاء هذا الاعمى الداهية ، فسأقص عليك واحدة من الحوادث العديدة التي وقعت لي معه ، مما يكشف عن دهاء عظيم فيه . لما تركنا شلمنقة ، كان قصده الذهاب الى نواحي طليطلة ، بسبب أن الناس - هكذا قال - هناك أوفر ثراء وإن كانوا أقل احسانا ، عملا بالمثل القائل : القاسي يعطي أكثر من العريان . وجئنا الى هذا الطريق عابرين بخير القرى . وحينما وجدنا ترحيبا ومكسبا حسنا كنا نقيم ، وحينما لم نجد شيئا ، كنا نرحل (٤٧) في اليوم الثالث .

وحدث ونحن نمر في مكان يدعى « الموروكس » (٤٨) ، في أوان حصاد العنب ، أن أعطى أحد الحصادين للاعمى عنقودا على سبيل الصدقة . ولما كانت سلال حصادي العنب في العادة سيئة الحال ، وكان العنب في ذلك الوقت ناضجا جدا ، فان العنقود انفرط من بين أصابعه . ولم يستطع أن يضعه في خرجه ، لأن حبات العنب كانت ستفص وتفسد كل ماحولها . فقرر أن يقيم لنا وليمة ، خصوصا لأنه لم يكن يستطيع أخذ العنقود ، ولأنه كان يريد ارضائي ، اذ قد ضربني في ذلك اليوم ضربات كثيرة بركبته وقبضة يده . فجلسنا على منحدر وقال لي : « سأجود عليك بمكرمة . فسأكل كلنا هذا العنقود ، وسيكون نصيبك منه مثل نصيبي ، وسنقسمه هكذا : أنت تلتقط مرة ، وأنا الأخرى ، بشرط أن تعدني بأنك لن تأخذ في كل مرة غير حبة واحدة . وأنا سأفعل بالمثل ، حتى نأتي على العنقود ،

وبهذه الطريقة لن يحدث غش . « ولما أنهينا هذا الميثاق ، بدأنا في تنفيذه ، لكن سرعان عند المرة الثانية أن غير الغدار رأيه وبدأ يأخذ حبتين في المرة الواحدة ، حاسبا أنني سأفعل بالمثل . لكنني لما رأيته قد نقد الاتفاق ، لم أكتف أنا بأن أفعل مثله ، بل أخذت أكثر : اثنتين اثنتين ، ثلاثا ثلاثا ، وأكثر كلما استطعت لذلك سبيلا .

فلما فرغ العنقود ، أمسك بالعمشوش (٤٩) في يده لحظة وهو يهز رأسه ، وقال : « يا لثرو ! ، أنت غششتني . أحلف بالله أنك أكلت حبات العنب ثلاثا ثلاثا » . فأجبت ، لم أفعل ذلك ، لكن لماذا تظن هذا الظن ؟ « فقال الاعمى الماكر : تسألني كيف عرفت أنك أكلت الحبات ثلاثا ثلاثا ؟ لأنني أكلتها اثنتين اثنتين فلم تقل شيئا (٥٠) . « . فكتمت الضحك في نفسي ، ورغم أنني كنت طفلا ، فقد شهدت ببراعة حجة الاعمى .

ومنعنا للتطويل ، فإني أسكت عن كثير من الأمور السارة أو الجديرة بالحكاية ، مما وقع لي بصحبة سيدي الأول هذا ، وأختم فورا بآخر حادث .

كنا في أسكالونا (٥١) ، مدينة الدوق الذي بهذا الاسم ، وأقمنا في فندق ، وأعطاني سيدي قطعة من المقاتق (٥٢) لأشويها . فلما انشوى المقتق وأكل قطع الخبز المغموسة في دهن المقتق ، أخرج مرابطيا من جيبه وأمرني بالذهاب لشراء نبيذ من الحانة بهذه القطعة من النقود . وفي هذه اللحظة وضع الشيطان أمام عيني الفرصة ، وهي كما يقولون تصنع اللص ، ذلك أنني أبصرت بالقرب من النار لفتة صغيرة مستطيلة وذابلة ، وكما ألقوها هناك ، لأنهم وجدوها غير جديرة لأن توضع

في القدر . ولما لم يكن هناك غيرنا نحن الاثنين ، وكان دخان المقتق الشهية (هذا الدخان كان هو المكسب الوحيد الذي سأكسبه من المقتق) قد أيقظ في نفسي شهية عارمة ، فأنني انتزعت المقتق من السفود ، ووضعت مكانه اللقطة المذكورة ، دون أن أفكر فيما عسى أن يحدث لي ، واستبعدت كل خوف ، ولم أفكر إلا في اشباع شهوة . وبعد أن أعطاني النقود لشراء النبيذ أخذ سيدي يدير اللقطة على النار ، محاولا أن يشوي تلك التي نجت من السلق بسبب عيوبها . وذهبت لاحضار النبيذ ، وما لبثت أن التهمت المقتق .

ولما رجعت وجدت الاعمى الخاطيء يقبض على اللقطة بين قطعتي خبز دون أن يفتن الى أنها لقطة لأنه لم يتحسسها . وبعد أن عض الخبز ، ظانا أنه في نفس الوقت يأكل قطعة من المقتق فانه شعر بابتعاد من برد اللقطة ، فتغير وجهه وقال لي : « ما هذا يا لثرو ! فقلت : « يا مصيبيتي ! هل ستتهمني بشيء ؟ ألم أحضر لك النبيذ ؟ لا بد أن واحدا ممن مروا هنا قد فعل ذلك للعبث بك . » فقال الاعمى : « لا ، لا ، لا ! أنا لم أترك السفود من يدي ، هذا غير ممكن . »

فأقسمت وأعدت القسم من جديد بأني بريء من هذه المقايضة ، لكن لم يفد شيئا ، لأن الاعمى اللعين لا يفوت مكره شيء ، فوقف ، وأمسك برأسي واقترب مني ليشتمني ، ومن المؤكد أنه لا بد قد تبين له من نفسي ما أكلت ، كأنه كلب سلوقي حاذق . ولزيت من التأكد من جلية الأمر وبالعصب الشديد الذي خنقه أمسك رأسي بكلتا يديه ، وفتح شذقي فتحا واسعا ، وفي الحال دس أنفه - وكان أنفه طويلا حادا مسنونا وزاده الغضب في تلك اللحظة ، بطول كف ، حتى

أن طرف أنفه مس حلقي . وإذا بالخوف الشديد الذي استولى عليّ والسرعة التي ابتلعت بها المقنق الذي لم يتوافر له الوقت الكافي بعد ليستقر به المقام في معدتي ، وخصوصا عملية السبر التي قام بها ذلك الانف الهائل الذي كاد يخنقني - كل هذه الامور مجتمعة كانت السبب في ظهور السرقة والشره واعادة المقنق الى صاحبه : اذ قبل أن يسحب الاعمى الشرير خرطومه ، شعرت معدتي باضطراب جعلها ترجع السرقة ، حتى أن أنفه والمقنق اللعين السيء المضغ قد خرجا من فمي في نفس الوقت .

آه ، يا الهي ! كم كنت أود أن أكون مدفونا تحت التراب حينذاك ، لانني قد مت فعلا ! واستطير الاعمى الخسيس غضبا الى حد أنه ماكان سيترك لي لحظة من عمري لو لم يهرع الناس على صوت الضجة . فاستخلصوني من بين يديه ، وقد امتلأت بالقليل من الشعر الذي كان على رأسي ، ووجهي ممزق ، وذوابة رقبتني مسلوخة ، كذلك حلقي - حلقي الذي يستحق ذلك فعلا ، لأنه هو الذي سبّب لي بمكري كل هذا العذاب .

وراح العجوز الشرير يحكي لكل من قابلناه مصائبي ، ويكرر ذلك مرة ومرتين ، سواء حكاية الكوز ، وحكاية العنب والحكاية الأخيرة . وبلغ الضحك من الناس حدا جعل الذين يمرون في الشارع يدخلون ليشهدوا الاحتفال . وينبغي عليّ أن أقول أن الاعمى كان يحكي فراهاتي هذه بظرف وعدوبة جعلتاني رغم سوء حالي ودموعي ، أشعر بأنني كنت أؤذيه بعدم ضحكي مثل الآخرين . وفي أثناء حدوث هذا خطر ببالي جبن أو خور . فلعلت نفسي لذلك وهو أني لم أقطع أنفه ،

وقد حانت لي فرصة عظيمة لذلك ، ونصف الطريق قد أنجز : فقد كان يكف أن أضغط بأسناني فيبقى ذلك الأنف عندي ، وما دام ينتسب الى هذا الشرير فلربما كانت معدتي قد احتفظت به خيرا مما فعلت مع المقتق . وما دُمتُ لا أَلْفَظُ فقد كان في وسعي انكاره اذا طلب مني . ليتني فعلت ذلك ، اذن لكان غنيمة .

وصالحتنا صاحبة الفندق والناس الذين كانوا هناك ، وغسلوا وجهي وحاً بالنيبذ الذي أحضرته لشرابه ، فعلق الاعمى الشرير متظرفا قائلاً : « الحق هذا الغلام يكلفني في نهاية العام لغسله من النيبذ أكثر مما أشرب في عامين والواقع يالشرو ، أنك تدين للنيبذ بأكثر مما تدين لاييك : فهذا وَلَدُكَ مَرَّةً ، والوهبك الحياة ألف مرة . » وحكي كم مرة كسر وجهي وسحجني ، ثم شفى بالنيبذ . وكان يقول لي : « إنني أقول لك لو أن انسانا يجب أن يسعد بالنيبذ فهو أنت » . والذين غسلوني ضحكوا كثيرا ، أما أنا فأنكرت ذلك بشدة .

ولقد صدق حدس الاعمى ، ومنذ ذلك الوقت فكرت مرارا في هذا الر الذي لا بد أنه مملوء بروح النبوة ، وأندم على ما فعلت من اساءات (وان كان قد دفعت ثمنها غالبا) ، وأنا أرى أن ما قاله في ذلك اليوم تحقق فعلا بحروفه ، ستعلم أمر ذلك ياسيدي .

هذا وألوان الاستهزاء الشرير التي فعلها بي الاعمى جعلتني أقرر تركه نهائيا وكنت أفكر في ذلك وعزمت عليه من قبل ، بيد أن هذه الفعلة الأخيرة رسخ عزمي ، ونفذت ذلك كما سترى .

خرجنا في اليوم التالي من المدينة للاستجداء ، ولما كانت السماء قد أمطرت في الليلة الماضية ولا تزال تمطر بعدُ راح سيدي ينشد مواعظه تحت بعض الاروقة في هذه المدينة ، حيث احتمينا من المطر . ولما أرخى الليل سدوله ، وكان المطر لا يزال ينهمر ، قال لي الاعمى : « يالثرؤ ، هذا الماء مستمر ، وكلما دخل الليل ازداد هطول المطر . فلنعد الى الفندق في وقت مبكر . » وللوصول اليه كان لابد من عبور جدول ماء زاده المطر انتفاخا ، فقلت له : يا عم ! الجدول كبير جدا ، لكن اذا شئت فأنني أتلمس موضعا يضيق عنده ، ونستطيع أن نعبره بسهولة دون بلل ، واذا قفزنا عبرناه بأقدام جافة . فاستحسن هذه الفكرة ، وقال : « أنت ذكي ، ولهذا أنا أحبك . قدني الى ذلك الموضع الذي يضيق عنده الجدول ، لأننا في الشتاء ، وفي هذا الوقت لا يكون الماء مقبولا ، خصوصا لغسل القدمين . »

ولما رأيته قد انصاع لخطتي ، اقتدته تحت الاروقة الى حيث يوجد عمود من الحجر منصوب في الميدان ، وكان يسند هو وأعمدة أخرى نتوءات المنازل ، وقلت له : يا عم ! ها هنا أضيق مر نعبر منه الجدول . ولما كان المطر غزيرا ، والمسكين قد تبلل وكنا مسرعين للنجاة من الماء الذي ينزل على ظهورنا ، فوق هذا كله لأن الله غطى على فهمه ليتمكنني من الانتقام منه ، صدّق ماقلت ، وقال «ضعني في المكان المناسب ، وأقفز الجدول . » فوضعتني في مواجهة العمود تماما ، وقفزت ووقفت خلف العمود ، كمن ينتظر لقاء الثور ، ثم قلت له : « هيا ، اقفز بكل ماتستطيع من قوة للوصول الى هذا الجانب من الماء . » ولم أكد ألفظ بهذه العبارة ، حتى تمايل الأعمى المسكين مثل الكبش ، وقفز بكل قوته ، بعد أن تراجع

خطوة الى الوراء استعدادا لمزيد من الانطلاق ، فاصطدم رأسه بالعمود فرن رنيننا يشبه الرنين الذي يحدثه كسر (٥٣) دباء كبير . فانطرح على الارض ، نصف ميت ورأسه مشقوق .

« كيف ؟ لقد شملت المقنق ولم تشم العمود ؟ شمه اذن ! » وتركته بين أيدي كثير من الناس ، وركضت أعدوا الى باب المدينة ، وقبل نزول الليل كنت في تورينخوس (٥٤) . ولم أدر ما فعل الله بالأعمى ، ولم أحفل بعلم ذلك .

الفصل الثاني

كيف دخل لثرو في خدمة قسيس وما وقع له مع هذا السيد

وفي اليوم التالي ، ولم أجد نفسي في أمان ، كنت في قرية تدعى مكيدا (٥٥) ، فيها ساقنتني خطاي الى الالتقاء بقسيس سألته الصدقة فسألني هل أعرف خدمة القداس . فقلت له : نعم ، وكان ذلك حقا ، ذلك أن الاعمى البائس علمني ، وهو يسيىء معاملتي ، آلاف الاشياء الحسنة ، ومن بينها كان ذلك . وأخيرا قبل القسيس أن أدخل في خدمته .

فاذا بي أنجو من الرعد لأسقط في البرق (٥٦) ، لأن سيدي الأعمى ، وان كان هو البخل بعينه كما رويت من قبل ، فانه بالنسبة الى هذا القسيس يعد الاسكندر الأكبر . لا أقول أكثر من هذا ، اللهم الا أن كل شح العالم كان حبيسا في هذا الرجل : ولست أدري أكان ذلك منه عن طبع ، أم اتخذته مع ثياب الكهنوت .

وكان يملك صندوقا كبيرا عتيقا مغلقا بمفتاح كان يحمله مربوطا في حبل مشبوك بمعطفه (٥٧) . وحين كان يأتيه من الكنيسة خبز القربان ، كان يضعه فيه في الحال ثم يعيد اغلاق الصندوق . ولم يكن في بيته مايؤكل كما يوجد عادة في سائر البيوت : مثل قطعة قديد من الخنزير معلقة بالمدخنة ، أو قطع من الجبن موضوعة على

منضدة صغيرة ، أو سلة - في الصوان - بها حتامات (٥٨) من بقايا الخبز على المائدة ، لأنه ولولن يقدر لي الانتفاع بشيء من هذه الأشياء ، فانه يخيل الى أن مجرد رؤيتها كان فيه مسلاة لي .

وكل ما هنالك كان سلسلة من البصل أغلق عليها في غرفة في أعلى البيت ، كان يعطيني منها واحدة كل أربعة أيام . وإذا طلبت منه المفتاح ، بحضور أحد الناس ، لأخذ حصتي ، كان يضع يده على جيبه وينتزع المفتاح باحتفال كبير ، ويعطيني اياه وهو يقول : خذ المفتاح وأعده الى بسرعة ، ولا يكن همك الالتهام ، وكأنما كانت كل محفوظات بلنسية (٥٩) مودوعة في تلك الغرفة ، وهي لم يكن فيها ، كما قلت ، غير بصل معلق على مسمار ، كان يحسبه حسابا دقيقا بحيث لو تجاسرت وتجاوزت حصتي المعلومة ، لدفعت ثمن ذلك غاليا . حتى أنني كنت أتضور جوعا .

لكن اذا كان هذا القسيس قليل الرحمة بي ، فإن رحمته بنفسه كانت أكبر . فكان طعامه الجاري ما يساوي خمس بيشاوات من اللحم للغذاء والعشاء . صحيح أنه كان يشركني في الحساء ، أما اللحم فلم يكن يعطيني منه بقدر ما في عيني ! أما الخبز فكان يعطيني منه القليل ، وكنت أرجو الله أن يعطيني سيدي هذا من الخبز ولو نصف ما كنت أحتاجه ! .

وفي أيام السبت (٦٠) جرت العادة في تلك النواحي بأكل رؤس الغنم . فكان يرسلني لشراء رأس بمبلغ ثلاثة مرابطيات . وبعد طهوه كان يأكل منه العينين واللسان ، والرقبة ، والمخ ، ولحم الفكين ، ويترك لي كل العظام المعروقة ويلقي

بها في صحنى قائلا : خذ ، كل ، استمتع بالنصر ، فالعالم لك ، أنت تعيش عيشة أفخر من البابا». وكنت أهمس في نفسي بحجبا : « أعطاك الله مثلها ! » .

وبعد أن أمضيت معه ثلاثة أسابيع ، انتابني من الضعف والنحول - بسبب الجوع وحده - ما جعلني لا أستطيع أن أقف على قدمي . وشاهدت نفسي تدلف بوضوح الى القبر ، لولا أن داواني الله ومعرفتي . أما اتخاذ الحيل فلم أجد اليه سبيلا معه ، لأنني لم أعرف من أين أهاجمه ، وحتى لو عرفت شيئا من ذلك ، لما كان في وسعي خداع القسيس مثلما خدعت الاعمى ، غفر الله له ، لو كان قد مات من هذه الصدمة ، لأن الأعمى ، وإن كان داهية ، فانه كان محروما من حس البصر ، هذا الحس الثمين ، ولم يكن يراني ، أما ذاك القسيس ! فلم يشهد له مثيل في حدة البصر .

وحين يحى وقت التصدق ، لم يكن يسقط في الخزفة (٦٦) قطعة بيضاء الا ويسجلها . وكانت احدى عينيه تحدد الى الناس ، والاخرى الى يدي ، وتراقصان في جمجمته ، وكأنهما من الزئبق . وكانت كل القطع البيضاء التي يعطيها المؤمنون يعدها عدا ، فاذا انتهى التصدق ، أخذ مني الخزفة ، ووضعها على المذبح ، حتى أنني طوال المدة التي عشتها ، أو بالاحرى متها ، معه ، لم أتمكن من أن أنتزع منه قطعة بيضاء واحدة .

ولم أحضر من الحانة نبذا ولو بمقدار قطعة بيضاء واحدة أبدا ، وإنما كان يوفر في النبذ الذي يستعمل في القداس ويضعه في الصندوق ، حتى كان يكفيه طوال اسبوع كامل . وليموه في كرازته الشديدة كان يقول لي : « أنظر ، يا ولد ، إن

القسيسين يجب عليهم أن يكونوا متقللين جدا في طعامهم وشرابهم ، ولهذا فأنني لأسرف مثل الآخرين . » لكن هذا البائس كان يكذب ويفتري ، لأنه في اجتماعات الطرق الدينية وفي حفلات دفن الموتى التي كنا ندعى للمشاركة في الصلوات فيها ، كان يأكل على حساب الآخرين أكل الذئب ، ويشرب أكثر مما يشرب أهل البركة (٦٢) . وليغفر لي الله قولي : « حفلات دفن الموتى » لأنني لم أكن عدوا للطبيعة الانسانية الا آنذاك ، وذلك لأنني كنت في أثنائها أكل جيدا حتى امتلئ . فكنت أتمنى بل وأدعو الله أن يقتل كل يوم انسانا . وحينما كنا نعطي الطقوس المقدسة للمرضى ، خصوصا سر المسحة الأخيرة ، وفي اللحظة التي كان القسيس يطلب فيها من الحاضرين أن يتلوا الدعاء ، لم أكن أنا آخر من يفعل ذلك ، بل بكل قلبي ومن صميم روحي أدعو الرب لا أن يفعل بالمرضى وفق مشيئته ، كما يقال في العادة ، بل أن يزيله من هذه الدنيا . وإذا أفلت انسان (وليغفر الله لي) . كنت ألقي به الى الشيطان الف مرة ، وعلى العكس من كان يموت كنت أشيعه بكل تبريكاتي . وطوال المدة التي أمضيتها هناك - حوالي ستة أشهر - لم يميت غير عشرين شخصا فقط ، وأظن أنني كنت الذي أقتلهم ، أو كانوا بالاحرى يموتون استجابة لدعائي ، لأن الرب ، وقد شاهد موتي الرهيب المستمر ، لذ له - وهذا رأيي - أن يقتلهم ليهب لي الحياة . ومع ذلك لم أجد أي علاج للداء الذي كنت اعاني منه ، لأنني اذا كنت أتمتع بالعيش في اليوم الذي كنا نتولى فيه مراسم الدفن ، ففي الايام التي لم يكن فيها ميت ، فأنني كنت مضطرا أن أعود الى جوعي المعتاد ، بعد أن كنت تعودت على وفرة الطعام ، فأزداد شعورا بألم الجوع . حتى أنني لم أجد عزاء الا في الموت ، الذي كنت أتمناه

لنفسى كما تمنيته مرارا لغيري ، لكنى لم أشاهد الموت قادما ، وان كان فى نفسى باستمرار .

وكثيرا ماخطر ببالى أن أترك هذا السيد الشحيح ، لكنى تخلت عن هذه الفكرة لسببين :

الاول أننى لم أكن أثق فى ساقى ، بسبب ماجلبه الجوع وحده من ضعف وهزال ،
والثانى لأننى عرفت سيدين الاول جعلنى أموت من الجوع ، ولما تركته عثرت بهذا
الآخر الذى اقتادنى الى حافة القبر . فلو أننى تخلت عن هذا ، واتخذت أسوأ منه ،
فلا بد من أن أهلك . ولهذا لم أجرؤ على التحرك ، مؤمنا ايمانا جازما بأنه فى كل
تبديل لسيد سأجد سيدا أسوأ منه ، واذا نزلت درجة أدنى ، فان اسم لثرو لن
يتردد فى هذا العالم بعد ولن يسمع أحد بى . وبينما أنا فى هذه المحنة (التى أرجو
من الله أن يخلصنى ويخلص منها كل مسيحي مؤمن) أشاهد نفسى - دون أن أرى
لها مخرجا - تمضي من سيء الى أسوأ ، حدث ذات يوم كان فيه سيدي المجزوع
الشرير البخيل خارج المدينة ، أن جاء الى بابنا سمكري ، فحسبته ملاكا بعث
به الله فى هذه الثياب . سألتنى هل عندك شيء يحتاج الى تصليح ؟ ، فقلت
بصوت خفيض لم يسمعه : « فى داخلى ستجد شغلا كثيرا ، ولن يكون عمالك
قليل فى تصليحي » : لكن لم يكن عندي متسع من الوقت للمداعبات ، فقد
قلت له وكأن روح القدس تنيرني : « ياعم ! لقد ضاع منى مفتاح هذا الصندوق ،
وأخشى أن يجلدنى سيدي لهذا السبب فبحياتك الا فتشت فى المفاتيح التى
تحملها عسى أن تجد فيها مفتاحا يفتحه ، وسأدفع لك ثمنه » .

فأخذ السمكري الملائكي في تجريب عدة مفاتيح مما يحمله في المجموعة الكبيرة من المفاتيح التي كانت معه، وأنا من جانبي ساعدته بدعواتي الضعيفة. وإذا بي، في اللحظة التي لم أكن أتوقع، أشاهد الصندوق يفتح، وأشهد، كما يقال، في أعماقه وجه الله على شكل رغيف خبز. فقلت له: « ليس معي نقود أدفعها ثمننا للمفتاح، لكن خذ هذا بديلا عنه. » فأخذ من هذه الأرغفة الرغيف الذي استحسنته، وأعطاني المفتاح ومضى راضيا. وأنا بقيت راضيا أكثر، لكنني في هذه اللحظة لم أمس شيئا، حتى لا يتبين شيء من خديعتي ولأنني وقد أصبحت مالكا لهذه الثروة، أقنعت نفسي بأن الجوع لن يجروء بعد على الاقتراب مني.

وعاد سيدي الشقي، وشاء الله ألا ينتبه الى القربان الذي أخذه الملاك. وفي اليوم التالي، لما خرج، فتحت جنتي الحافلة بالخبز وأخذت بين يدي رغيفا وأدخلته بين أسناني حتى اختفى في أقل مما يستغرقه ترتيل عقيدتين (٦٣) ولم أنس اغلاق الصندوق. ثم أخذت أكنس البيت وكلي حبور، واثقا أنه بهذا الدواء سأعالج حياتي البائسة.

وهكذا كنت جذلان فرحا في ذلك اليوم واليوم التالي. لكن لم يقدر لي الاستمتاع طويلا بهذه الراحة فقد أخذتني حمى الغب في شخص من قتلني جوعا، ذلك أني رأيته في ساعة غير متوقعة وهو ينحني على صندوقه، وهو يقلب ويعيد تقليب أرغفة الخبز، ويعدها ويعيد عدها. وأنزويت وقلت في دعواتي المستورة وتضرعاتي وتوسلاتي: « يا قديس يوحنا، أعم عينيه (٦٤) ! ».

وبعد أن ظل وقتا طويلا يحسب الحساب اليومي على أصابعه ، قال : « لولم يكن هذا الصندوق في مكان أمين جدا ، لقلت أنهم أخذوا أرغفتي ، لكنني أريد منذ اليوم ، أن أغلق باب الاتهام والظنون ، بأن أجري حسابا دقيقا . لقد بقي لي منها تسعة وقطعة . « فقلت في نفسي : « بعث الله لك بتسع مصائب ! » .
وحين سمعته يقول ذلك ، بدا لي أنه اخترق صميم قلبي بسهم قناص ، وبدأت معدتي في التخذخضخ وقد استشعرت أنها ستعود الى حيتها السابقة .

وخرج . ولكي أسلي عن نفسي فتحت الصندوق ، وشاهدت الخبز ، وبدأت في تعبده دون أن أجرؤ على تناوله (٦٥) . وأخذت في عد الخبز لأرى عسى أن يكون هذا الشحيح قد أخطأ في الحساب ، فوجدت الحساب أدق مما وددت . وكل ما استطعت فعله هو أن أعطي الأرغفة ألف قبلة ، وأن أقرض قليلا وبكل لطف الرغيف المقروض في موضع القرض . وبهذه الطريقة أمضيت اليوم أقل فرحا مما كنت في اليوم السابق . لكن لما تزايد الجوع ، خصوصا وأن معدتي كانت ، خلال هذين اليومين أو الثلاثة ، قد تعودت على أكل المزيد من الخبز ، شعرت أنني أموت نصف موت ، الى درجة أنني وجدت نفسي وحدها ، ولكن الله نفسه ، وهو يغيث الملهوفين ، وقد رأي في هذه المحنة لم أفعل غير أن كنت أفتح الصندوق وأغلقه من أجل تأمل وجه الله (٦٦) هذا ، كما يقول الاطفال . ولكن الله نفسه ، وهو يغيث الملهوفين ، وقد رأي في هذه المحنة أوحى الى خاطري بعلاج صغير . فقد فكرت وقلت في نفسي : « ان هذا الصندوق عتيق ، كبير ، ومحطم من عدة نواح ، وإن لم يكن فيه غير خروق ضيقة ، فيمكنني الظن أن الفئران تدخله وتعطب هذه الأرغفة . لكن أخذ رغيف كامل ليس بالأمر الملائم ، لأنه سينتبه الى الغلطة

هذا الذي يجعلني أعيش ولكن هذا محتمل « - هكذا قلت لنفسي - وأنا أفتت الخبز على مفرش غير وثير كان هناك آخذاً من أحد الأرفعة ، تاركا الآخر حتى أنني اقتطعت كسراً من ثلاثة أرفعة أو أربعة ، وأكلتها كما لو كنت أمص ملابساً ، وهكذا تبلغت قليلاً وشعرت ببعض السلوى .

فلما عاد سيدي لتناول طعامه فتح الصندوق وشاهد التخریب ، واعتقد حقاً أن فئراناً هي التي فعلت ذلك ، لأنني حاكيت ماتفعله الفئران عادة ، بكل دقة . وراح يتفحص الصندوق من كل ناحية ، فاكشف بعض المواضع التي ظن أنها دخلت منها . وناداني وقال لي : « يا لثرو ! انظر ، انظر أي اضطهاد عانا خبزنا في هذه الليلة . » فتظاهرت بالدهشة التامة ، وسألته ماذا عسى أن يكون هذا . فقال : « ما هذا ؟ فئران تلتهم كل شيء » . وأخذنا في تناول الطعام ، ومن فضل الله استفدت أيضاً من هذا ، لأنه كان نصيبي هذه المرة من الخبز أكبر من الفتات الذي اعتاد أن يخصني به ، ذلك أن القسيس قطع بالسكين كل الجزء الذي اعتقد أن الفئران قرضته ، وأعطاني إياه قائلاً : « كل هذا ، فالفأر حيوان نظيف . » في ذلك اليوم اذن وقد ضخمت حصتي من الطعام بفضل مجهود يدي ، أو بتعبير أدق ، بمجهود أظافري ، فرغنا من طعامنا وإن كنت في الحق لم أبدأ أبداً . وبعد ذلك أصابتنى رعشة ، حين رأيت سيدي يدور هنا وهناك ، منتزعا مسامير من الجدران وباحثاً عن ألواح ، بها سمر وسد كل ثقب الصندوق العتيق . فقلت حينئذ : « رباه ! لكم من البلايا والحظوظ والمصائب يتعرض الأحياء ، وما أقل لذات حياتنا الحافلة بالمجهود ! ويلتاه لي أنا الذي حسبت أنني بهذا العلاج

الضعيف الهزيل سأعالج بؤسي حتى شعرت بشيء من الرضا والسعادة ! لكن هاهو سوء حظي - وقد أيقظ سيدي البخيل وألهمه اجتهادا لم يكن في طبعه (وان كان أمثال هؤلاء الناس لا ينقص أكثرهم شيء من هذا) - قد شاء أن يسد ثقب الصندوق ، مغلقا بذلك في الوقت نفسه الباب المفضى الى انبساطي وفتاح ذلك الباب المؤدي الى عذابي . « هكذا كنت أشكو تعس حظي ، بينما كان نجاري القلق ينجز عمله بكثير من المسامير والألواح ، وهو يقول « الآن ، ياسادتي الفئران الغدارين ، عليكم أن تغيروا رأيكم ، لأنكم في داخله سيكون أمركم عسيرا . »

ولما خرج ، ذهبت لمشاهدة ماعمل ، فوجدته لم يترك أي ثقب في الصندوق العتيق الحزين يمكن أن تلج ذبابة . ففتحته بمفتاحي الذي لافائدة فيه ، دون أمل في امكاني أخذ شيء منه . ورأيت الرغيفين أو الثلاثة أرغفة المقروضة التي ظن سيدي أن الفئران قد قرضتها وأخذت منها فتاتا وأنا أمسها برفق كثير ، مثل المساييف البارع . لكن لما كانت الضرورة سيدة عظيمة ، وكانت حاجتي ملحة جدا ، فقد فكرت ليل نهار في الطريقة التي بها أمسك أودي ، ويبدو لي أن الجوع كان نورا على ضوءه عثرت على هذه الأدوية البائسة : ولهذا أحسن الناس حين قالوا أن الحاجة ترهف العقل ، بينما الشبع يثلمه ، وهذا ما شاهدته في نفسي .

وإذا بي ذات ليلة كنت ساهرا أفكر في الطريقة التي أستفيد بها من الصندوق وأستغله ، شعرت بأن سيدي نائم تماما وذلك من غطيته وزفراته الكبيرة التي كان يبثها . فنهضت بكل رفق ، وكنت أثناء النهار وأنا مشغول بما أود فعله وقد

وضعت سكيناً عتيقاً في مكان أستطيع العثور عليه وتوجهت الى الصندوق الحزين ،
وهاجمته من الجانب الذي بدا ضعيف الدفاع ، هاجمته بالسكين الذي استخدمته
بمثابة مثقاب . ولما كان الصندوق العتيق جداً بغير حول ولا طول ، بسبب طول
عمره ، بل كان على العكس رقيقاً نخرأ ، فقد أسلم لي في
الحال ومكنتني من حفر ثقب جيد في جانبه ، ابتغاء نجاتي . ولما أتممت ذلك ،
فتحت الصندوق بكل عناية ، الصندوق المثقوب على هذا النحو ، وتحسست الخبز
الذي وجدته مخدوشاً وفعلت به مثلاً قلت من قبل . وبعد أن شعرت ببعض العزاء
بهذه الوسيلة أغلقت الصندوق من جديد ، وعدت الى حصيرتي حيث استرحت
ونمت قليلاً ، ولكن غرارا ، وأرجعت هذا الى قلة الطعام ، ولا بد أن هذا هو السبب
الحقيقي لأن هموم ملك فرنسا (٦٧) لم تكن في ذلك الوقت لتزيل النوم عن
جفوني . - وفي الغداة ، لما شاهد سيدي ، ما حدث من تخريب ، سواء في الخبز أو
الثقب الذي أحدثته ، بدأ يلقي بالفئران الى الشيطان ويصيح : « ماذا عسانا نقول
في هذا ؟ لم أشعر بوجود الفئران في هذا البيت إلا الآن ! » وهو صادق في ذلك من
غير شك ، لأنه اذا كان في المملكة بيت يجب أن يكون خالياً منها ، فيجب أن
يكون هذا البيت ، لأن الفئران لم تتعود أبداً لاقامة حيث لا يوجد مايؤكل . ثم
عاد القسيس يبحث عن مسامير على الجدران وعن ألواح ليسد الثقوب .

ولما جاء الليل ونام القسيس ، أسرع ومعي أدواتي ، وفتحت في الليل
الثقوب التي سدها أثناء النهار . وعمل كلانا جهده وبذل وسعه الى حد أن هذا
المثل لا بد أنه قيل فينا : اذا انغلق باب انفتح باب آخر . وكان يبدو علينا أننا
نقوم بعمل نسيج فانلوفاً (٦٨) ، لأن ما كان ينسجه في النهار ، كنت أنا أمزقه في

الليل . وبعد عدد قليل من الأيام والليالي ، جعلنا الصندوق المسكين في حال تجعل من يريد أن يسميه تسمية صحيحة يقول أنه درع قديم من القرون البالية لاصندوق ، لأنه صار مزودا بأسنة ورؤوس مسامير عديدة .

ولما أدرك أن علاجه لم يُجد فتىلا ، قال : « ان هذا الصندوق أُسيئت معاملته وهو من خشب عتيق وعفن الى حد أن أي فأر يمكنه أن ينفذ منه ، وقد صار على حال تجعل أي مساس به بعد سيجعله عديم الفائدة ، والاولى من هذا أنه رغم أنه لايفيد الا قليلا ، فاننا نحتاج اليه وسيكلفنا استبدال آخر به مبلغ ثلاثة أو أربعة ريالات . وخير وسيلة الآن ، وقد أخفقت الوسائل السابقة ، أن ننصب أحبولة لهذه الفئران في داخله .

وسرعان مااستعار مصيدة فئران ، وبفتات من الجبن طلبه من الجيران ترك المصيدة مسلحة في الصندوق باستمرار: وكانت في هذا نجدة عظمى ، فانني على الرغم من عدم حاجتي الى كثير من الأدم لآكل ، فقد استمتعت بقطع الجبن التي استخرجتها من المصيدة ، ولم يغني هذا عن قرض الخبز . فلما شاهد القسيس أن الخبز يقرض ، والجبن يؤكل ، دون أن يؤخذ الفئر الذي أكله ، جن جنونه وسأل الجيران ما عسى في الامر أن يكون : وأنى للفأر أن يستطيع أكل الجبن واخراجه من المصيدة دون أن يقع في الفخ ويمسك ، بينما وجد لسان المصيدة ساقطا ؟ !

فكان من رأي الجيران أن الذي أحدث هذا الضرر ليس فأرا ، لأنه كان لابد أن يمسك في احدى المرات . وقال أحدهم : « اني أذكر أن ثعبانا يتردد على بيتك ، فلا بد أنه هو الفاعل ، وهذا مفهوم لأن الثعبان لما كان طويلا فان لديه الوسيلة

لالتقاط الطعام ، وعلى الرغم من أن اللسان يسقط عليه ، فانه لما كان لا يدخل كله في المصيدة فانه يستطيع الخروج منها . » .

وماقاله هذا الجار استحسنة الجميع وأشاع الاضطراب الشديد في نفس سيدي . ومنذ ذلك الحين لم يكن ينام نوما عميقا حتى أن أقل دودة تجعل الخشب يقرقع كانت كفيلة بأن تجعله يظن أنما هي الثعبان وهو يقرض الصندوق . فكان ينهض في الحال ويمسك العصا ويضعها عند فخذيه منذ أن نبهوه على هذا ، ويروح يهوي بها بضربات قوية على الصندوق المسكين من أجل أن يخيف الثعبان . وعلى الضجة التي يحدثها ، كان الجيران يستيقظون ، ولم يدعني أنام ، فكان يجيء الى حصيرتي ويقلبها ويقلبني معها ، اعتقادا منه أن الثعبان قد جاء بالقرب مني واندس في القش أو في جلبابي ، لأنه قيل له أن هذه الدواب من عاداتها في الليل أن تأتي الى مهد الأطفال لتستدفئ فيها ، وأنها تعضهم وتضع حياتهم في خطر .

وغالبا ماكنت أظهار بالنوم ، وحين يقول لي القسيس في الصباح : يا ولد ! أما أحسست بشيء في الليلة الماضية ؟ لقد جريت في أثر الثعبان وأعتقد أنه يأتي ليرقد في سريرك ، لأن الدواب باردة جدا وتنشد الحرارة - فكنت أجيب « لا قدر الله له أن يعضني ، لأنني أخاف منه كثيرا . » .

وكان القسيس في حال من الاهتياج واليقظة الى حد أن الثعبان ، أو على الأصح الثعبيان ، لم يعد يجرؤ على القرض في الليل ولا الاقتراب من الصندوق ، لكنني كنت أقوم بهجمات في النهار ، بينما يكون سيدي في الكنيسة أو في القرية . فلما شاهد هذه الحسائر وعدم جدوى العلاج الذي يستطيع تقديمه ، كان يشرد في الليل كالشبح ، كما قلت من قبل .

وكنت أخشى أن تؤدي جهوده هذه الى العثور على المفتاح الذي كنت أخبئه تحت الحصيرة ، وبدا لي أن الأسلم هو أن أحتفظ بالمفتاح في فمي أثناء الليل ، لأنني منذ أن عملت في خدمة الاعمى جعلت فمي يتعود على أن أستخدمه كيسا لي ، حتى أنني كنت أخبئ فيه اثني عشر أو خمسة عشر مرابطيا ، كلها قطع فضية ، دون أن يمنني ذلك من الأكل. ولولا ذلك لما كان في استطاعتي أن أنتزع مرابطيا واحدا من تفتيش الأعمى اللعين ، الذي كان كثيرا مايفتشني تفتيشا يصل الى خيوط مخيطي وأسالي .

وهكذا ، كما قلت ، رحت أضع في كل مساء المفتاح في فمي ، غير خائف من أن يكتشفه سيدي الساحر هذا . لكن اذا كان لامفر من وقوع المصيبة ، فلا ينفع الحذر . لقد شاء قدري ، أو بالأحرى خطاياي ذات ليلة بينما كنت نائما أن يكون وضع المفتاح في فمي المفتوح بحيث كان نفسي الذي أتنفسه وأنا نائم يمر من ثقب المفتاح ، وكان مثقوبا ، فكان يصدر عن ذلك صفير شديد لسوء حظي ، حتى أن سيدي ، وقد انتفض من نومه ، سمع ذلك الصفير واعتقد أنه فحيح الثعبان ، وفي الواقع كان شبيها به ، فنهض بكل رقة وعصاه في يده ، ثم استهدى بصفير الثعبان وتحسس حتى توجه نحوي باحتياط شديد حتى لايشعر به ، ولما اقترب ، ظن أن الثعبان قد جاء ليستدفئ على حرارتي في الحصيرة التي كنت نائما عليها . فرفع عصاه عالية اذ حسب أن الثعبان من تحته وسيضره ضربة قوية بعصاه حتى يقتله ، فكان أن أهوى على رأسي بضربة شديدة رحت بعدها في غيبوبة منشدخا انشدخا عظيما .

فلما تبين له أنه أصابني أنا ، وذلك من صراخي الشديد من ضربته المروعة ،
اقترب مني ، كما روى بعد ذلك ، وناداني بصوت عال ، وحاول افاقتي من
غيبوتي . ولما أحس وهو يتحسّسني بيديه ، أن الدم يفيض مني بغزارة ، وتعرف
الضرر الذي أحدثه بي ، أسرع لاحضار نور . وعاد بالنور فوجدني أنوح
ومفتاحي في فمي ولم أكن قد لفظته فكان نصفه خارجا وفي وضع كما لو كنت أصفُرُ
بعدُ . فدهش قاتل الثعابين لدى رؤيته لهذا المفتاح ، وتأمله ، ثم أخرجه من فمي
فرأى حاله ، لأنه لم يختلف في شكله عن مفتاحه . وسرعان ماراح يجربه ، وعن
هذا الطريق أثبت الجريمة . ولابد أن هذا الصياد القاسي صاح حينئذ : « الفأر
والثعبان اللذان كانا في حرب معي وأكلا ثروتي ، لقد وجدتهما . »

أما ماحدث خلال الأيام الثلاثة التالية فلا أدري عنه شيئا ، لأنني أمضيتها
في بطن الحوت (٦٩) ! لكن مارويته منذ قليل ، هو ماسمعتة ، بعد أن أفقت من
غيبوتي ، من سيدي ، وقد كان يحكي الحادث تفصيلا لكل من جاءوا
للاستفسار .

وبعد ثلاثة أيام عدت الى وعيي وأحسست بنفسي راقدًا على الحصيرة ، ورأسي
كله ضمادات ومغطى بالزيت والمرام فقلت مندهشا : « ما هذا ؟ » فأجابني
القسيس القاسي : « لقد طاردت الفئران والثعابين التي خربت بيتي . »
فتفحصت نفسي ورأيتني في أسوأ حال ، وسرعان ماأدركت مصابي .

وفي هذه الساعة دخلت ساحرة عجوز وبعض الجيران ، وأخذوا في نزع
الشاش من رأسي وتضميد ضربة العصا ، ولما رأوا أنني استعدت وعيي اغتبطوا

لهذا كثيرا وقالوا لي : « لقد استرد وعيه ، وان شاء الله لن يكون هذا شيئا . » ثم عادوا يقصون قصة مصائبي ويضحكون منها ، بينما أنا المسكين كنت أبكي . ومع هذا كله قدموا لي الطعام ، لأنني كنت أرتعد من الجوع ، وبصعوبة استطاعوا اغاثتي . وأخيرا ، وشيئا فشيئا ، وبعد خمسة عشر يوما ، استطعت النهوض وتجاوزت الخطر ، لكنني لم أنج من الجوع ، ولم أتعاف تماما .

وفي غداة اليوم الذي نهضت فيه ، أمسك سيدي بيدي واقتادني خارج البيت وألقى بي في الشارع وقال لي : « يالثرؤ ! من الآن فصاعدا أصبحت ملك نفسك ، لا ملكي . ابحث عن سيد ، وارحل مع الله ، لا أريد لخدمتي خادما مجتهدا مثلك . ولا بد أنك كنت صبيا لأعمى » . ورسم علامة الصليب أمامي ، كما لو كان الشيطان يسكن في جسمي وعاد الى بيته وأغلق الباب .

الفصل الثالث

كيف دخل ثرو في خدمة سائس وماذا جرى له في صحبته

اضطرت اذن الى استمداد القوة من الضعف ، وشيئا فشيئا ، بمعونة بعض الناس الطيبين ، بلغت مدينة طليطلة الشهيرة ، وفيها بفضل الله التأم جرحي بعد خمسة عشر يوما . وطالما كنت مريضا كان الناس يتصدقون عليّ ، لكنني حين شفيت كانوا يقولون لي جميعا : يا وقح ، يا عثُلّ ! ابحت عن سيد طيب تعمل في خدمته . « لكن أين لي بهذا السيد ؟ هكذا كنت أجيب في نفسي ، اللهم إلا أن قيض الله لي واحدا مخصوصا ، كما خلق العالم . » .

وهكذا مررت من باب الى باب دون جدوى (ذلك أن الاحسان قد صعد الى السماء منذ زمن بعيد) ، حتى أعثرني الله على سائس كان يسير في الشارع مقبول الهندام ، حسن التسريحة ، يمشي بخطى توقعية منتظمة . فتأمل كلانا في الآخر ، وقال لي : يا صبي ! هل تبحث عن سيد ؟ فقلت له : « نعم ، ياسيدي . » « اتبعني اذن ، لقد لطف الله بك فوضعك في طريقي ، لا بد أنك اليوم تلوت صلاة مباركة . » .

فتتبعته حامدا الله على ماسمعت منه ، ولأنه بدا لي ، من ملبسه وسمته ، أنه السيد الذي أحاج اليه . كان الوقت وقت صباح حينما لقيت هذا السيد الثالث ، الذي جعلني أقطع مسافة كبيرة من المدينة خلفه . لقد مررنا بالأماكن

التي كان فيها يباع الخبز وسائر ألوان الزاد . ولقد ظننت ، بل ورغبت في أن يحملني بألوان الطعام ، ذلك لأن ذلك الوقت كان هو الوقت المعتاد للتزود من الحاجيات الضرورية ، لكنه كان يرام أمام هذه الأشياء بخطوات واسعة . فقلت في نفسي : « ربما لم يجد شيئا يليق بذوقه ، ويريد أن تشتري من مكان آخر » .

ومشينا هكذا حتى الساعة الحادية عشر تماما ، وهنالك دخل الكنيسة الكبيرة ، وأنا من خلفه ، وشاهدته يستمع الى القداس وسائر الطقوس الالهية بكل خشوع وتقوى حتى انتهى كل شيء وانصرف الناس . ثم خرجنا وزاد في خطواته وبدأنا في النزول في أحد الشوارع . فتبعته وأنا أسحب أذيال الغبطة بكوننا لم نسع الى التزود بالطعام ، معتقدا أن سيدي الجديد هو من يتزودون بالجملة ، وأن الغذاء لابد قد أعد على نحو ما أود وما كنت أحتاج .

ودقت الساعة الواحدة بعد الظهر في اللحظة التي وصلنا فيها أمام منزل توقف سيدي عند وصيده ، وأنا كذلك . ثم قلب طرف رداءه على الجانب الايسر ، وأخرج من كفه مفتاحا وفتح الباب . ودخلنا البيت ، وكان مدخله مظلمًا حزينا بحيث يخيف كل الداخلين ، وإن كان في الداخل فناء صغير وغرف محتملة .

ولم نكد ندخل حتى خلع سيدي رداءه ، وبعد أن سألني هل يداي نظيفتان ، طلب مني أن أنفضه وأطويه معه ، وبعد أن نفخ التراب عن كرسي من الحجر ، وضع رداءه عليه ثم جلس الى جوار رداءه ، وسألني بالتفصيل والتدقيق من أين أتيت ، وكيف جئت الى هذه المدينة ؟ . فقدمت له عن ذلك حسابا أطول مما كنت أود ، اذ بدا لي أن الوقت كان وقت اعداد الطعام ووضع الحساء ، لاوقت الجواب

فلما أدركت بأي قدم يعرج (٧٠) ، أسرعت في الطعام لأنني رأيته متهينا ، لو أنه فرغ قبلي ، أن يقدم لي خدماته لمساعدتي على التهام الباقي . ولهذا فرغنا في نفس الوقت تقريبا . وهنا أنشأ يهز بأصابعه بعض الكسرات النادرة الصغيرة التي بقيت على صدره ، ثم دخل غرفة صغيرة قريبة منا ، وعاد منها بالبريق متكسر غير جديد ، وقدمه لي ، بعد أن شرب منه . لكني ، لكي أبدو قنوعا ، قلت له : « ياسيدي ، أنا لأشرب النبيذ » فأجابني : « هذا ماء وفي وسعك الشرب منه . » فأخذت منه الابريق ، لكني لم أشرب كثيرا ، لأن جزعي لم يكن من العطش . وبقينا هكذا حتى أرخى الليل سدوله نتناث الحديث في أمور أراد أن يستطلع طلعا ، وكنت أجيبه بخير ما علمت .

وفي تلك الأثناء ، اقتادني الى الغرفة التي جاء منها بالابريق الذي شربنا منه ، وقال لي : يا غلام ! قف هناك ، وانظر كيف نصنع هذا السرير ، حتى يمكنك في المستقبل صنعه » . « فوقفت في ناحية وهو في الناحية الأخرى ووضعنا السرير البائس الذي لم يكن فيه مايصنع ، لأنه انما يتألف من تشبيكة من القصب ، محمولة على حوامل ، بسطت عليها ملاءة ومرتبة حقيرة (٧١) . ولم يكن يبدو على المرتبة شكل المرتبة لأن القماش كان قليلا ما يغسل ، وان كانت تؤدي وظيفتها دون أن يكون فيها مايكفي من الصوف . فبسطناها ، وبذلنا جهدا لتطريتها لكن عبثا ، لأن من الصعب جعل الجاسي رخوا ، وهذه الحشية الرديئة كانت خاوية تماما حتى أنها حين وضعت على تشبيكة القصب ، ارتسمت الأعواد كلها ، الى حد أن من ينظر اليها يظنها السلسلة الفقارية للخنزير هزيل جدا . وعلى هذه المرتبة الجافة ، وضعنا غطاء من نفس النوع ، لم أستطع تمييز لونه .

ولما تم اعداد السرير ونزل الليل ، قال لي سيدي : « يالثر ، الوقت متأخر ، ومن هنا حتى الميدان مسافة طويلة ، بالاضافة الى أنه في هذه المدينة يجول كثير من اللصوص الذين في الليل يسرقون المعاطف . فلنمض اذن هذه الليلة حيثما اتفق ، وغدا في الصباح سيلطف الله بنا . ولما كنت أسكن ها هنا وحدي ، فليس عندي أي زاد خصوصا وأنتي في الأيام الأخيرة كنت أتناول طعامي خارج المنزل ، وأما الآن فسننتصرف بشكل آخر . » فأجبتة : « ياسيدي ! لاتزعج نفسك من أجلي ، فان في وسعي أن أمضي ليلة بل أكثر من ليلة بدون طعام . » فقال : « سيفيد صحتك ، فكما قلنا اليوم لاشي في هذه الدنيا يجعل المرء يعيش طويلا خيراً من قلة الطعام » . فقلت في نفسي : « اذا كان هذا هو الطريق الأسلم ، فانني لن أموت أبدا ، لأنتي راعيت دائما هذه القاعدة رغم أنفي ، وأحسست أنني سأراعيها طوال حياتي ، فهكذا شاء سوء حظي » .

هنالك رقد سيدي في السرير ، وركب من جواربه وصدريته مخدة ، وأمرني بأن أنام تحت قدميه ، فامثلت لذلك ، لكن عيني ما مضمضت بنوم لحظة ، لأن القصب وعظامي الناتئة لم يفعلا طوال الليل سوى أن يتصادما ويتنازعا ، بحيث لم يبق في جسمي - بسبب الجوع والتعب والشقاء الذي عانيته - رطل من اللحم ، فضلا عن أن الجوع أخذتني حدته بسبب أنني لم أطعم شيئا طوال اليوم ، والجوع لا يعاشر النوم . ولكم لعنت نفسي وحظي السيء وأمي الف مرة (والله يغفر لي) طوال معظم الليل ، وشر من هذا ، سألت الله مرارا أن يتوفاني اليه .

ولما جاء الصباح نهضنا ، وأخذ سيدي ينظف جواربه وصدريته وتبانه « sayo » وردائه « capa » وقمت أنا على خدمته باحتفال ! ثم ارتدي ثيابه كما

والبرودة ما جعله يفقد لون وجهه . وبدأ الاضطراب عليه وتلعثم في الكلام وراح يخلتق اعذارا غير مقبولة ، ولكن هاتين السيدتين ، وكانتا من غير شك عارفتين بحاله ، عرفتا مرضه وتركته قائما هناك كما كان .

وفي تلك الأثناء أكلت بعض جذوع الكرب كانت بديلا لي عن الافطار ، ثم عدت الى المسكن مسرعا كما يليق بخادم جديد ، دون أن يراني سيدي . وأردت أن أكنس بعض أجزائه لأنها كانت في حاجة الى ذلك ، لكن لما لم أجد ماينبغي القيام به بهذا العمل ، سألت نفسي ماذا أفعل . واستحسننت أن أنتظر سيدي حتى ينتصف النهار ، هذا ان عاد وقدر له أن يحضر معه شيئا من الطعام ، لكن ضاع انتظاري سدى .

ولهذا حين دقت الساعة الثانية ووجدته لم يعد ، والجوع يعذبني ، أغلقت الباب ووضعت المفتاح حيث أمرني واستأنفت حرفتي : فبصوت منخفض شاك ، ويداي مضمومتان على صدري ، والله أمام عيني واسمه في فمي ، بدأت أتسول خبزي على الأبواب والبيوت التي بدت لي ذات ثراء . ولما كنت قد رضعت هذه المهنة ، أعني أنني تعلمتها مع أستاذ كبير هو الاعمى ، صرت تلميذا بارعا ، حتى أنه على الرغم من الافتقار الى الاحسان في هذا المكان وعلى الرغم من أن محصول العام لم يكن وفيرا ، فقد نجحت في ذلك الى حد أنه ماكادت الساعة الرابعة توشك حتى كنت قد دسست في جسمي أرطالا من الخبز واحتفظت بأكثر من رطلين منه في كمي وعبي . وعدت الى المسكن ، وفي طريقي مررت أمام جزارة كرشة ، فسألت امرأة هناك فأعطتني من كارع ثور مع بعض الكرشة المطبوخة .

ولما بلغت المنزل ، وجدت سيدي الطيب وقد طوى رداءه ووضع على الكرسي الحجري ، وراح يترىض في الفناء . ولما دخلت أقبل عليّ ، فاعتقدت أنه سينتهرنني على تأخري طويلا ، ولكن الله ألهمه الحسنى ، فسألني من أين أتيت ، فقلت له : « سيدي ! لقد بقيت هنا حتى الساعة الثانية ، ولما رأيت سيادتك لم تحضر ، خرجت الى المدينة أسأل أهل الخير ، فأعطوني هذا . » وأريته الخبز والكرشة التي كنت أحمّلها في حجري . فهش لذلك وأقبل عليّ بوجه منطلق وقال : « أما أنا فقد انتظرتك لتناول الغداء ، ولما وجدتك لم تحضر ، تناولت الغداء . لكنك سلكت سلوك الشريف ، فالأفضل أن تسأل حبا في الله من أن تسرق . وهكذا يعينني الله لأنني أستحسن ما فعلت ، لكنني أوصيك ألا تدع أحدا يعرف أنك تعيش معي ، فهذا أمر يتعلق بشرفي ، وإن كنت أظن أن هذا سيظل سرا ، لأن الناس قليلو المعرفة بي في هذا المكان ، وكنت أرجو الله ألا أكون ها هنا أبدا . » فأجبت : « لاتقلق من هذه الناحية ياسيدي . فمن ذا الذي سيسألني عن ذلك ؟ ومن عساي أخبره بشيء من هذا ؟ » فقال : « هيا كل اذن أيها المسكين وان شاء الله سنخلص قريبا من هذا الضيق ، وان كان يجب عليّ أن أصرح لك بأنني لم أوفق الى شيء ، منذ أن دخلت هذا المنزل . لا بد أن أرضه خبيثة ، لأنه توجد منازل ملعونة وأسس خبيثة تعدي بالشقاء من يقيمون فيها . ولا بد أن هذا المنزل واحد منها ، لكنني أعدك أنه بعد انتهاء هذا الشهر فقط فاني لن أبقى فيه حتى لو جعلوه ملكا لي . »

وجلست على طرف الكرسي ، وخوفا من أن يتهمني بالشره ، لم أخبره بما أكلت من قبل ، وأخذت في تناول العشاء وعض الكرشة والخبز

حول نفسه أكثر من مائة مرة دون أن أعثر على قطعة واحدة ولا دليلاً على أنه كان فيه شيء من ذلك منذ زمان طويل جداً . فقلت في نفسي : هذا رجل فقير ، والمرء لا يعطي ماليس عنده ، أما الاعمى الشحيح ، والقسيس البخيل الشقي ، اللذان كانا يعيشان من فضل الله : أحدهما بتقيل الأيدي والآخر باطلاق لسانه ، وقد قتلتاني جوعاً ، هذان من العدل أن أكرههما ، كما أن من العدل أن أرثي لحاله . ويشهد الله أنني اليوم حين يقع لي أن أعثر بواحد في مثل حاله ، ومع هذا الهندام والفخفة ، فاني أشفق عليه فلربما يعاني مما رأيت هذا يعانيه ، وكان يطيب لي أن أخدمه ، رغم يؤسه ، خيراً من ذينك الآخرين ، للأسباب التي ذكرتها .

لكنني كنت ساخطاً بعض السخط على شيء واحد : ذلك أنني كنت أود له ألا يتظاهر بكل هذا الادعاء وأن يطامن من تكبره بقدر ماتزايد حاجته واملاقه ، لكن يبدو أن ثم قاعدة فيما بينهم وهي أنه على الرغم من أنهم لا يملكون فلساً واحداً ، فان طاقتهم يجب أن تبقى في مكانها . شفاهم الله من هذا الداء ، لأنهم سيموتون دون أن يبرأوا منه .

كنت في تلك الحال اذن أحيا الحياة التي وصفتها ، ومع ذلك لم يشأ حظي المنكود - الذي لم يتعب من مطاردتي - أن أستمح حتى في هذه المعيشة البائسة المخجلة ، لأن العام لما كان مجدباً عقياً بالقمح ، فان مجلس المدينة قرر أن يخرج منها كل الغرباء المساكين ، معلناً أن من يبقون فيها من هؤلاء سيكون عقابهم الجلد . وتنفيذاً لقرار النفي هذا شاهدت بعد أربعة أيام من اعلانه ، موكباً من الفقراء يجلدون في الشوارع الأربعة الرئيسية ، فاستشعرت من ذلك فزعة شديدة بحيث لم أجرؤ على المخاطرة بالتسول .

ولو شاهدنا أحد الآن لأبصر مجاعة منزلنا ، وحزن ساكنيه وصمتها ، فقد بقينا يومين أو ثلاثة دون أن نأكل لقمة أو نتفوه بكلمة . أما أنا فقد أنقذت حياتي بعض النسوان غازلات القطن اللواتي كن يصنعن طواقي ويسكن بالقرب من بيتنا وكنت قد عقدت معهن صلة جوار ومعرفة . ومن الجهد (٧٦) الذي كان يؤتى اليهن كن يعطينني شيئا قليلا ، قنعت به وقد بلغ مني الموت مبلغه ، ورغم ذلك لم أكن مشفقا على نفسي بقدر ما كنت مشفقا على سيدي المسكين الذي لم يطعم شيئا طوال ثمانية أيام ، فقد بقينا طوال هذه المدة في المنزل دون أن نأكل شيئا : وهو أين كان يذهب ، وماذا أكل ؟ لست أدري . ومع ذلك كنت تراه عند الظهر ، ينزل الشارع ، مشدود القامة ، أطول من سلوقي جيد الجنس ، ومن أجل الحفاظ على شرفه الشيطاني ، كما يقال ، كان يمسك بعود من القش لم يكن في المنزل منه شيء ، ويقف عند عتبة الباب ويأخذ في تسليك أسنانه ، ولم يكن بين ثناياها أي شيء ، بينما يشكو من هذا المسكن التعس المشؤم ، قائلاً : « إنه مخيف المنظر ، وهذا راجع إلى شؤم طالع هذا المسكن . ها أنت ذا تراه حزينا مقبضا مظلمًا ، وطالما كنا نسكنه فسنظل نعاني الآلام : أود أن يأتي آخر الشهر لنخرج منه » .

وبينما نحن صريعا الجوع واليأس حدث ذات يوم أن وقع لقدرة سيدي البائسة ريال ، لست أدري بأية صدفة أو حظ ، وجاء الى المنزل مسلحا به وعليه سبيل الانتصار كما لو كان قد استولى على كنز البندقية (فينيسيا) وأعطاني اياه باسمه وعليه سياء الرضا الشديد ، وقال : « خذ ، يا لثرو ، لقد فتح الله كفه لنا قليلا ، اذهب الى الميدان واشتر خبزًا ونبذا ولحما . ولنفقاً عين الشيطان . وأكثر

تناولت ، وبقيت ثلاثة أيام دون أن أسترد لون وجهي . أما سيدي فانه في كل مرة كان يتذكر فيها حادثي هذا ، لم يكن يستطيع أن يملك نفسه من الضحك .

وهكذا عشت بعض الوقت مع هذا السائس ، سيدي الفقير الثالث ، وأنا أتلهف دائما إلى معرفة سبب مجيئه ومقامه في هذا المكان ، اذ لاحظت منذ اليوم الأول لدخولي في خدمته أنه كان أجنبيا ، لقلة علاقته وأحاديثه واتصالاته بالسكان وأخيرا تحققت رغبتي وعرفت ماكنت أود أن أعرف .

ف ذات يوم كنا أكلنا فيه أكلا مناسباً ، وكان راضيا ، روى لي قصته . فقال أنه من قشتالة القديمة وأنه غادر بلده لأنه لم يكن يريد أن يرفع طاقيته لنبييل كان جاره . فقلت له : « سيدي ، ان كان كما تقول وكان أغنى منك ، فما كان يغض من قدرك أن تبدأ أنت بالتحية ، مادمت تقول أنه كان يحبك أيضا . » فقال : « نعم ، لقد كان كما قلت لك ، وكان أوفر ثراء مني ، وكان أيضا يحبيني ، لكنني مادمت كثيرا ماكنت أبدأه بالتحية وأرفع طاقيتي ، فلم يك ثم ضرر في أن يقوم هو أيضا بمبادأتي بالتحية أحيانا ويكسب بذلك يدا عندي . » فقلت : « يبدو لي ياسيدي أنني ماكنت أقيم وزنا لهذا ، وخصوصا مع من هم أكبر مني وأغنى . » فقال لي : « أنت طفل ، ولا تفهم شيئا في مقتضيات الشرف ، وهو اليوم كل رأس مال الأخيار . فلتعلم اذن أنني - كما ترى - سائس ومع ذلك فلو أنني لاقيت الكونت في الطريق ولم يرفع لي طاقيته (وأقصد أن يرفعها تماما) ، فأنني اذا شاهدته قادما مرة أخرى فأنني سأعمل - من أجل ألا أرفع طاقيتي له - على الدخول في أي منزل ، متظاهرا بأن فيه لي عملا ، أو أمضي الى طريق آخر قبل

أن يصل اليّ ، لأن النبيل لا يلتزم بشيء قبل أحد غير الله والمملك ، ولا يليق به وهو من الأخيار أن يتغافل لحظة عن توفير الكرامة لشخصه . واني لأذكر أنني أهنت ذات يوم صانعا في بلدي ، وهممت بضربه ، لأنه كان يقول لي في كل مرة يلقاني : « الله يحفظ سيادتك » فقلت له : « أيها الوغد الشرير ، لماذا لم تؤدّب خيرا من هذا ؟ تقول لي : الله يحفظك (٧٨) » « Manténqaos Dios » كما لو كنت أنا أي انسان كان ؟ ! « ومنذ ذلك اليوم كان يرفع لي طاقيته من هنا الى هناك ويخاطبني بما يليق . » فقلت لسيدي : « أليس من الأدب أن يحبي واحد الآخر قائلا : الله يحفظك ؟ » فأجاب : « اسمع يانيلة (٧٩) ! هذه الكلمات لاتقال الا للناس العاديين ، أما النبلاء مثلي ، فيجب على الأقل أن يقال لهم : أقبل (٨٠) أيادي سيدي . ولهذا فان الرجل الذي من بلدي وكان يشبعني من « الحفظ » لم أحتمل منه أن يقول ذلك لي ، ولن أحتمل من أي مخلوق فيما عدا المملك ، أن يقول لي : الله يحفظك . » فقلت : يالشقوتي ! لست أدّهش أبدا من أنه لايهتم بحفظك ، مادمت لاتحتمل من أحد أن يدعو لك الله بذلك . »

وواصل قوله : « خصوصا وأنتي لست فقيرا الى هذا الحد بحيث أملك في بلدي قطعة أرض لبناء بيوت لو أنها شيدت وارتفعت جدرانها ، لأعطتني أكثر من مائتي ألف مرابطي ، لأنه من الممكن أن تبني كبيرة وجيدة ، وهي تقع على بعد ١٦ فرسخا من مسقط رأسي ، في حي كوستانيا (٨١) في بلد الوليد ، كما أنني أملك برج حمام لو لم يكن مهتما كما هو اليوم لأعطاني في كل سنة أكثر من مائتي فرخ حمام ، فضلا عن أشياء أخرى أسكت عن ذكرها ، فقد تركتها بسبب شرفي من

المنزل طولا وعرضا ، ولما لم يجدوا شيئا ووجدوه خاويا ، كما رويت ، قالوا لي :
« أين أثاث سيدك ؟ خزائنه ، وبسطه ، وأدواته المنزلية ؟ فقلت : « لا أعرف شيئا »
فقالا : « لاشك أنهم أخذوه أثناء الليل وحملوه الى مكان آخر . ياسيدي الشرطي ،
اقبض على هذا الغلام ، لأنه يعرف أين يوجد هذا كله » .

اقترب الشرطي وأمسك برقبة صديرتي ، قائلا : « سأقبض عليك يا ولد ،
إذا لم تخبر أين أشياء سيدك . » وأنا الذي لم أكن في مثل هذه المصيبة من قبل
(صحيح أنه أمسك بتلابيبي من قبل ، لكن برفق ، هداية من كان لا يرى .)
استشعرت خوفا شديدا ووعدت بالاجابة عما يسألوني ، وأنا أبكي . فقالوا :
« هذا حسن ، قل لنا ماتعرف ، لا تخف . » فجلس الموثق على كرسي من حجر
ليسجل كشف الجرد ، وسألني ما هنالك . فأجبت قائلا : « سادتي ، ما يملكه
سيدي ، بحسب ماقاله لي ، هو قطعة أرض بناء ممتازة تصلح لبناء بيوت ، وكذلك
برج حمام متهدم . » فقال الدائنان : « حسن ، فمهما قلت عنهما ففيهما مايكفي
لسداد الدين . وفي أي مكان من المدينة يقع هذا ؟ فقلت : في بلده . » فقالا : «
الله ! ماأبدعها من صفقة ! وأين بلده هذا ؟ فأجبت في قشالة القديمة - هكذا
قال لي أنه هناك . » فلما سمع الشرطي والموثق هذه الكلمات أمعنا في الضحك
بشدة وقالا : « هذه شهادة كافية لاسترداد دينكما ، وان كانت أهم من ذلك » .

وهنا قالت الجارات اللواتي كن هناك حاضرات : « ياسادة ، هذا الصبي
مبريبى ويعيش منذ قليل مع هذا السائس ولا يعرف عن شؤونه شيئا أكثر مما تعرفون ،
بل ان المسكين كان يأتي إلينا ونعطيه مايأكله بقدر ما استطعنا ، احسانا لله ،
وكان في المساء يعود لينام عند سيده » .

ولما تبين لهم برائتي ، أطلقوا سراحي وتركوني . ثم طلب الشرطي والموثق من الرجل والمرأة أتعابهما ، فنشب بينهم نزاع وشجار ، لأنها ادعيا أنها ليسا ملزمين بدفع أتعاب حيث أنه لم يوجد شيء ، وبالتالي لم يوقع حجز . فقال الشرطي والموثق أنها تركا قضية أخرى كانت أهم لهما من أجل أن يتوليا هذه القضية . وأخيرا وبعد جدال طويل ، أمسك قواس بالغطاء القديم الذي كان على المرأة العجوز ، وعلى الرغم من أن حمله لم يكن شيئا ، فقد مضى الخمسة وهم جميعا يتصايحون . ولا أدري الى أي شيء انتهى الأمر وأظن أن الغطاء المسكين قد دفع للجميع ، وكان هذا من صالحه ، لأنه في الوقت الذي كان ينبغي عليه أن يستريح من متاعبه الماضية ، فإنه استمر يستخدم .

وعلى هذا النحو تركني سيدي الثالث المسكين ، الذي أقنعني تماما بسوء حظي ، الذي طالما حالفني واقتاد أموري في طريق معاكس . ذلك أنه بينما جرت العادة بأن يترك الخدم أسيادهم ، ففي حالتي أنا كان الأمر بالعكس ، لأن سيدي هو الذي تركني وتخلص مني .

الفصل الخامس

كيف قام لثرو على خدمة مَرَّج صكوك الغفران
وما شاهده من أمور وهو في صحبته

وساقني الحظ الى لقاء سيد خامس ، كان مَرَّج صكوك غفران (٨٣) ، وكان أجراً وأوقع وأمكر مروج صكوك غفران شاهدهته أو توقعت مشاهدته أو شاهده انسان ، لأنه كان يتخذ في هذا السبيل وسائل وطرقا ويحتال بحيل دقيقة جدا .

ذلك أنه حين يدخل القرى التي كان عليه أن يروج فيها الصكوك ، كان يبدأ باهداء القسيس أو رجال الكهنوت بعض الأشياء الصغيرة مما لاقيمة له ولا قوام ، مثل خسة من خس مرسية أن كان هذا موسمه ، أو زوج من الليمون أو البرتقال أو خوخ ، أو زوج من الفرسك (٨٤) «duraznos» أو لكل واحد ثمرة كمثرى برجموت . وبهذه الوسيلة يحاول اجتلاب رضاهم ، ليساعدوه في تجارته وحث رعيته على شراء الصكوك . وحين كانوا يشكرونه كان يستفسر منهم عن تعليم رجال الدين ، فان علم منهم أنهم يعرفون اللاتينية ، لم يكن يتفوه بكلمة لاتينية واحدة حتى لا يغلط ، بل كان يتكلم اسبانية رقيقة مهذبة ، وبلسان طلق جدا ، وعلى العكس أن قيل له أن رجال الدين هؤلاء من أولئك المبجلين الذين وسموا قسيسين بسبب أموالهم أكثر مما هو بسبب آدابهم أو رسائل الاحالة (٨٥) ، كما

يمثل أمامهم دور القديس توما ، فيتكلم طوال الوقت باللغة اللاتينية أو على الأقل بما يشبهها وان لم يكن اياها .

واذا لم يشتروا منه الصكوك طوعية ، كان يسعى الى ارغامهم بالقوة على شرائها ، مضايقا الشعب ، ومستخدما أحيانا حيلة ماهرة . ولما كان الامر سيطول بنا كثيرا لو أنني رويت كل تلك التي شاهده يستخدمها ، فاني أجتزئ بذكر واحدة بارعة جدا وفكهة ، تدل على براعته .

في موضع من أرباض (٨٦) طليطلة «Sagra de Toledo» حيث كان وعظ طوال يومين أو ثلاثة ، باذلا جهوده المعهودة ، لم يتشر منه أحد صكه ، ويبدو أيضا أنه لم يرد أحد شراءه . فتأثرت تأثرته ، وبعد أن تدبر في ماذا يفعل ، قرر دعوة الشعب في صباح الغد لترويج الصك .

وفي مساء اليوم ، بعد العشاء ، أخذ هو والشرطي في ملاعبة وجبة الليل (٨٧) وبمناسبة هذه الوجبة ثار بينهما نزاع وتبادلا الكلمات البذيئة : فهونعت الشرطي بأنه لص ، والشرطي نعته بأنه مزور . هنالك أمسك سيدي المندوب بحرية كانت عند باب البيت الذي كانا يلعبان فيه ، وأمسك الشرطي بالسيف الذي يحمله في منطقته . وعلى صوت الضجة والصرخات التي أطلقاها جميعا ، هرع المضيفون والجيران وتدخلوا بينهما ، لكن اللاعبين ، وقد اشتد بهما الغضب . حاولا التخلص من أولئك الذين فصلوا بينهما ، وأراد كل منهما أن يقتل الآخر . ولما تجمع الناس على هذا الضجيج العالي الذي ملا أرجاء المنزل ، ولما شاهد كلاهما أنه لا يستطيع أن يهاجم الآخر بسلاحه ، فقد تبادلا الشتائم ، ومن بينها أن قال الشرطي لسيدي

والتزوير ، فليتداع هذا المنبر وأنا عليه ، لينزل في تحت الأرض سبع أذرع ، بحيث لا أظهر أنا ولا المنبر . أما إن كان ما أقوله صحيحاً ، وكان هذا الرجل بدافع من الشيطان ولحرمان الحاضرين هنا من هذا الخير العظيم قد جاء بالكذب الصراح الشرير ، فليعاقب وليفضح للجميع خبثه . » .

ولم يكذ سيدي الورع يتم هذه الخطبة حتى سقط الشرطي البائس على الأرض فأحدث سقوطه اهتال ضجة عمت أرجاء الكنيسة ، ثم أخذ ينوح ويرغي من فمه ويلوي شذقيه ويحدث تقطيبات في وجهه ويضرب بقدميه ويديه ويتقلب على جنبه فوق الأرض . وارتفع اللفظ والعجيج من الحاضرين حتى لم يكن في وسع أحد أن يسمع الآخر . واستولى الذهول والخوف على الكثيرين . وقال البعض : « الرب ينجيهِ ويغيثه » ، وقال البعض الآخر « هذا جزاء وفاق ، لأنه شهد الزور . » وأخيراً اقترب البعض ، يخالطهم مع ذلك خوف فيما اعتقدوا وأمسكوا به من ذراعيه ، وكان يرمي منهما باللكمات من حواليه وأمسكه آخرون من ساقيه بشدة ، لأنه لا يوجد في العالم بغل شرير يرفس بهذه الرفسات العنيفة . وأبقوه على هذه الحال وقتاً طويلاً ، وكانت عدتهم أكبر من خمسة عشر رجلاً ، فكان يعذبهم ، ويلطم وجوه الذين يسترخون في القبض عليه .

وبينما جرى هذا ، كان سيدي راكعاً في منبره ، وعيناه مرفوعتان صوب السماء ، وكأنه يحلق في الذات الالهية حتى أن النواح والضجيج والصرخات التي ملأت الكنيسة لم تقو على انتزاعه من تأملاته التقوية . ثم اقترب هؤلاء الناس الطيبون منه ، ونادوه ، وأيقظوه من وجدده وتوسلوا اليه أن يغيث هذا الرجل المسكين الذي كان يعالج سكرات الموت ، دون أن يحسبوا حساباً لما حدث ولكلماته الشريرة ،

لأنه نال عقابه ، فقالوا لسيدي لو استطاع أن يفعل شيئاً لانتفاذ الشرطي من الخطر الذي وقع فيه ومن الآلام التي يعانيتها ، فانما ذلك في سبيل الله ، لأنهم كانوا مقتنعين تماماً بخطيئة الرجل ، هذا الخاطيء ، وبصدقه هو وبره ، والرب استجاب لدعائه وانتقم له ، ولم يشأ أن يؤخر عقاب هذا الرجل .

فتطلع فيهم سيدي المندوب وكأنه أفاق من نوم لذيذ ، وتطلع في الجاني الأثيم وفي كل من أحاطوا به ثم قال بلهجة متزنة جداً : « أيها الناس الطيبون ، ماكان لكم أبدا أن تتوسلوا من أجل رجل أظهر الله فيه قوته بهذا الوضوح ، ومع ذلك فان الله يوصينا ألا نرد على الشر بالشر ، وانما أوصانا بأن نغفر الالهات ، ولهذا نستطيع بكل ثقة أن نضرع الى جلاله الالهي أن يحقق ما يأمرنا به وأن يغفر لمن أهانه بوضع العقبة في طريق انتصار الايمان المقدس . فلنمض جميعا للضراعة اليه والصلاة له » . ثم نزل من منبره ، وأوصاهم بالتضرع الشديد الى ربنا ليرضى بالصفح عن هذا الخاطيء ، واعادة العافية اليه ، والعقل السليم ، ولطرده الشيطان من جسمه لأن الله جل جلاله أذن بدخول الشيطان فيه ليرتكب خطيئته العظيمة .

فركع الجميع وأمام المذبح ، ومع بدء القسيسين في الانشاد بصوت خفيض ، أمسك سيدي بالصليب والماء المبارك ، وذهب الى الشرطي ، ورتل تراتيل على جسمه ، ثم رفع يديه وعينيه الى السماء ، ولم يكن قد بقي في العينين بعد غير قليل من البياض ، وبدأ في القاء موعظة امتازت بالاسهاب أكثر منها بالورع ، استدر بها الدموع من مآقي الحاضرين (كما يحدث عادة بالنسبة الى مواعظ فترة ذكرى الآلام ، إذا القاها واعظ ورع أمام جمهور ورع) ودعا ربنا - وهو لا يريد

الفصل السادس

كيف دخل لثرو في خدمة راعي هيكل وما جرى له

ثم دخلت في خدمة رسام معلم يرسم على الدفوف ، وكنت أقوم على سحق ألوانه ، وهنا أيضا عانيت ألف شر . كنت في ذلك الوقت فتى يانعا ، ودخلت الكنيسة الكبرى ذات يوم ، فاستأجرتني لخدمته راعي هيكل وأجر لي حمارا قويا وأربع جرار وكراباجا ، لأحمل الماء في المدينة . وكانت هذه أول درجة من درجات السلم الذي رقيت لبوغ الحياة الكريمة ، لأنني كنت أصيب شعبي . وفي كل يوم كنت آتي بالمكسب وقدره ثلاثون مرابطيا الى سيدي ، فيما عدا يوم السبت حيث كنت أحتفظ بالمكسب لنفسي ، فضلا عن ذلك فان ما كان يزيد على الثلاثين مرابطيا في كل يوم كان من حقي .

ونجحت في هذه المهنة أيما نجاح ، حتى أنني بعد أربعة أعوام ، استطعت ، بفضل ما ادخرت ، أن ألبس ثيابا مشرفة ابتعتها من محل لبيع الملابس المستعملة ، فقد اشتريت صديرية قديمة من الفستان (٨٨) ، وتبانا مهلهلا ذا تطريزات وجيب ، ومعطفًا مسرجًا ، وسيفًا من صنع مدينة كويار (٨٩) .

ولما رأيت نفسي في ثياب رجل طيب ، طلبت من سيدي أن يسترد حماره ، لأنني لم أرغب في الاستمرار في هذه المهنة .

الفصل السابع

كيف خدم لثرو شرطيا ، وما جرى له

ولما ودعت راعي الهيكل ، عملت مساعد شرطي ، لكنني لم أبق معه طويلا ، اذ بدت لي هذه المهنة مخوفة بالمخاطر . فقد حدث لسيدي ولي ذات ليلة أن طوردنا برمي الاحجار وبالعصي من جانب مجرمين لاجئين (٩٠) فأساءوا معاملتي سيدي ، أما أنا فقد استطعت الفرار . فأدى هذا بي الى ترك المهنة .

وبينما كنت أفكر في نوع الحياة التي سأختارها لأجد فيها الراحة وأجمع منها شيئا أدخره لشيخوختي ، هداني الله ووجهني الى مهنة نافعة . وبمساعدة أصدقاء وسادة ، عوضت عن كل المتاعب وألوان الشقاء التي عانيتها حتى ذلك الحين . لقد ظفرت بما كنت أنشده ، وظيفة ملكية (٩١) اذ لايفلح الا من له مثل هذه الوظائف ، وأنا أعيش منها اليوم وأؤديها خدمة لله ولك ياسيدي . ووظيفتي هي النداء على الخمر التي تباع في هذه المدينة ، وعلى البيوع وعلى الأشياء الضائعة ، ثم مصاحبة من ينالون العقاب بسبب العدالة (٩٢) وبصراحة ووضوح أقول أنني مناد عمومي .

ونجحت ووفقت في هذه الوظيفة الى حد أن كل الأمور تقريبا التي تتصل بهذه الوظيفة تمر بين يدي ، حتى أن من لديه خمر أو شي آخر يريد بيعه فانه يعتقد أنه لن يكسب الا اذا نادى عليه لثرودى تورمس .

وفي ذلك الوقت ولما عرف بشخصي السيد رئيس القساوسة (٩٣) في سان سلفادور ، وهو سيدي وصديقك ياسيدي ، وكنت أنادي على خموره ، فانه سعى الى تزويجي من احدى خادماته ، ولما رأيت أنه لا يمكن أن يأتي من مثل هذه الشخصية الا الخير والنعمة ، فاني وافقت وتزوجت منها ، ! وحتى الآن ليس ثم ما يوجب ندمي على ذلك . ففضلا عن كونها فتاة طيبة مجدة في العمل ، خدوما ، فاني أتلقى من السيد رئيس القساوسة كل رعاية وحماية . وهو يعطيها دائما بين الحين والحين حملا من القمح ، وفي الأعياد الكبيرة يعطيها لحما ، وأحيانا زوجا من خبز القربان والجوارب العتيقة التي لا يلبسها بعد . وقد استأجر لنا بيتا صغيرا ملاصقا لبيته ، واعتدنا في كل أيام الآحاد والاعيان تقريبا أن نتناول طعامنا في بيته ، لكن السنة السوء (وهي لاتنقطع أبدا) لاتدعنا في هدوء ، يقولون مالست أدري ، أو بالاحرى ماأعرفه جيدا : وهو أنهم شاهدوا زوجتي تصلح أمر سرير السيد رئيس القساوسة وتهيئ طعامه .

كان الله في عونهم خيرا مما يقولون الحق ! لأنه فضلا عن أنها ليست امرأة تحفل بمثل هذه المزحات ، فان سيدي وعدني بما وفي به ، فيما أظن . ذلك أنه تحدث معي طويلا ذات يوم بحضرة زوجتي وقال لي : « يالثرودي تورمس ! من يحفل بأقوال السوء وألسنتهم لن ينجح أبدا . أقول لك ذلك لأنني لن أدهش أبدا اذا تهامس أحدهم وهو يرى زوجتك تدخل بيتي وتخرج منه . انها تدخله بكل شرفها ، وبشرفك أؤكد لك ذلك . ولهذا لاتقلق بالا أبدا لما يمكن أن يقال ، بل اهتم فقط بما يعينك ، أي بفائدتك . » فقلت له : « لقد قررت أن أكون في صحبة

(١) راجع : مقدمة Marcel Bataillon الى الترجمة الفرنسية للكتاب ، باريس ، سنة ١٩٥٨ .
وراجع المقدمة الممتازة لكل من

(ب) Alfredo Cavaliere: *La vida de L. de Tormes*. Napoli, 1955

(ج) Natali Rossi: Sulla datazione de L. de T., in *Studi di Letteratura spagnola*, Roma, 1966, pp. 169-180.

(د) *La vida de Lazarillo de Tormes*, introducción por Alberto Bleuca, pp. 9-13. (Madrid, 1972).

(٢) Manuel J. Asensio: «La intención religiosa del L. de T. y Juan de Valdés», in *HR*, XXVII (1959), p. 79.

(٣) Márquez Villanueva: «La actitud espiritual del *Lazarillo*», in *Espiritualidad y Literatura en el siglo XVI*. Madrid-Barcelona, ed. Alfaguara, 1968, p. 106.

(٤) Marcel Bataillon: *La vie de Lazarillo de Tormes*, texte et ci. franç., p. 19-20. París, 1968, Aubier.

(٥) A. Bleuca: *La vida...*, p. 15.

(٦) *Historia de la Orden de San Jerónimo*, NBE, 12, Madrid, 1909, II, p. 145.

(٧) *Catalogus Clarorum Hispaniae Scriptorum*

(٨) *Hispaniae Bibliotheca*

(٩) في مقدمة ترجمته الفرنسية للكتاب ، التي ظهرت في باريس سنة ١٨٨٦ ، ثم على نحو أعمق في بحث بعنوان « أبحاث عن كتاب لثريودي تورمس » نشر ضمن كتابه « دراسات عن اسبانيا » السلسلة الأولى ، باريس

١٨٨٨ ط ٢ ١٨٩٥ . *Etudes sur l'Espagne*

(١٠) Angel González Palencia: «Leyendo el L. de T.», in *Del Lazarillo a Quevedo*. Madrid, CSIC, 1946, pp. 21-30.



- Eugenio Mele: Vida y obras de Don Diego Hurtado de Mendoza, t. III, p. 206-222. Madrid, 1943. (١١)
- Fonger de Haan: *An Outline of the History of the Novela Picaresca in Spain*. New-York, 1963. (١٢)
- La vida del L. de T., Clásicos Castellanos de «La Lectura», t. 25. (١٣)
- La vida de L. de T., ed. Everest W. Hesse & Harry F. Williams, (١٤)
- Madison (University of Wisconsin Press), 1948.
- A. Rumeau: *Le Lazarillo de Tormes: essai d'interprétation, essai d'attribution*. Paris, 1964. (١٥)
- Menéndez y Pelayo: *Historia de los Heterodoxos Españoles*, ed. Nacional de Obras راجع عن (١٦)
- Completas*, t. IV, p. 208. Madrid, 1947.
- «Porque la vida filosófica y pical es: una mesma B.A.E. في نشرة (١٧)
- Francisco Ayala: «Fuente árabe de un cuento popular en el «Lazarillo», in *Boletín de la Real Academia Española*, t. XLV Cuad. CLXXVI, sept. dic. 1965, pp. 493-495. (١٨)
- A. Rumeau: «Notes au Lazarillo: la casa lóbrega y oscura», in *Les langues neo-latines*, (١٩)
- année 59, fasc. 1, marz-abril 1965 y n. 172, pp. 16-24.
- Alberto del Monte: *Itinerario de la novela picaresca española*, nueva edición 1976, Barcelona. (٢٠)
- R. Foulché-Delbosc: «Remarques sur «Lazarillo de Tormes», in *Revue Hispanique*, VII (1900), (٢١)
- pp. 94-95.
- Fernando de la Granja: «Nuevas notas a un episodio del Lazarillo de Tormes», in *Al-Andalus*, (٢٢)
- vol. XXXVI (1971), fasc. I, pp. 223-237.
- R. Dozy: *Histoire des musulmans d'Espagne*, éd. E. Lévi-Provençal, Leiden, 1932, t. II, p. 184, (٢٣)
- et n. 1.
- Margherita Marreale: «Reflejos de la vida española راجع في هذا (٢٤)
- en el Lazarillo», in *Clavileño*, V (1954), n.º 30, pp.28-31.
- Américo Castro: *Hacia Cervantes*, p. 137, Madrid, 2 ed; 1960. (٢٥)
- وأول من افترض أن المؤلف لابد أنه كان يهوديا وتنصر هو وأجداده كان هو أميريكو كاسترو، في هذا الكتاب (٢٦)
- (ص ٢٦ - ٣٤) ، وأشار مارسيل بتايون الى احتمال أن يكون المؤلف من المنتصرة Conversos ولكنه لم يحدد أن يكون أصله بالضرورة يهوديا (مقدمة الترجمة الفرنسية المذكورة سابقا ص ٢٠) .

- (٦١) - قبل انتهاء القداس يمر أحد الكهنة على المصلين ليتناول منهم ما يصدقون به من قطع انقود يلقونها في إناء على شكل خزفة (محارة) . والقطع البيضاء = قطع النقد الفضية « blancas » .
- (٦٢) - « saladores » هم أولئك الذين يدعون القدرة على شفاء بعض الأمراض بواسطة بصاقهم أو أنفاسهم ، وكانوا مشهورين بكثرة الشراب .
- (٦٣) - dos credos : دعاء يصرح فيه الداعي بالعقيدة : أعتقد في الله - وهو لا يكاد يستغرق ثلاثه دقيقة .
- (٦٤) - يعد القديس يوحنا شفيح الخدم .
- (٦٥) - بالمعنى الطقوسي لهذا اللفظ وهو تناول الخبز المقدس فيما يسمى بمرسم التناول بعد القداس عند الكاثوليك .
- (٦٦) - كانت عادة الناس في اسبانيا التقاط الخبز الذي يقع على الأرض وهم يقولون : « وجه الله » ويشبهها مايزال يحدث في الريف المصري حتى اليوم حين يجد المرء خبزا في الطريق فيلتقطه ويقول : هذا حسنة من الله .
- (٦٧) - امتلا حكم فرانسوا ، ملك فرنسا بالمشاكل منذ أسره في بافيا ، المشاكل مع من يسميه لثرو : امبراطورنا الظافر أي شارلكان (كارلوس الخامس الذي كان امبراطورا من سنة ١٥١٦ - ١٥٥٦ م) .
- (٦٨) - « Penélope » في الأساطير اليونانية : بنت ايكاربوس وفريبوا ، وزوجة اوديسيوس ، وأثناء غيبه : وديسيوس رفضت خطاها بدعوى أنها تنسج ثوبا لوالد زوجها لاثريستي ، وكانت في النهار تنسج ، ثم في الليل تنقض مانسجته في النهار .
- (٦٩) - اشارة الى قصة النبي يونس (سفر يونس ٢ : ١) الذي عاش في بطن الحوت ، والى التشبيه الوارد في « انجيل متى » (١٢ : ٤٠) : « كما كان يونس في بطن القيطس ثلاثة أيام وثلاث ليال » .
- (٧٠) - تعبير مجازي بمعنى : نقطة الضعف فيه .
- (٧١) - العبارة غير واضحة ، لكن يبدو أنه لم يكن هناك ملاءة سرير ، وكل ما في الأمر مرتبة رديئة جدا عليها غطاء .
- (٧٢) - صانع سلاح مشهور في نهاية القرن الخامس عشر ، وتوقيعه « Antonio me fecit » كان مكتوبا على سيف فرناندو الكاثوليكي ملك اسبانيا .
- (٧٣) - « Conde Alarcos » كما في طبعتي انقرس وبورجوس و « Conde de Arcos » في طبعة القلمة .
- (٧٤) - شخصية تروبادور (شاعر غنائي) جليقي ، بطل العشق البائس ، وقد جعل منه لوبي دى بيجا « Lope de Vega » البطل في مسرحية « الاصرار حتى الموت » « Portiar hasta morir » .
- (٧٥) - « Ovidius Naso » شاعر لاتيني ولد في ٢٠ مارس سنة ٤٣ ق م ، وتوفي في سنة ١٧ م واشتهر بقصيدته « فن الحب » « Ars Amatoria » .
- (٧٦) - المجهود : الشيء القليل يعيش منه العقل ، قال تعالى : « الذين لا يجهدون الا جهمهم » .



- (٧٧) - راسع مقالناه في المقدمة عن حكاية عربية مشابهة تماما .
- (٧٨) - هذا لاعب لفظي باللفظ « *mantener* » فمعناه يحفظ ، ويطلع .
- (٧٩) - هذا التعبير شبه العامي هو أقوى ترجمة لقوله « *mucho de enhoramala* » .
- (٨٠) - كانت عبارة « تقبيل الأيادي » من عبارات المجاملة التي شاعت في ذلك الوقت ، وكان الأخلاقيون يسخرون منها ، ولا تزال تستعمل حتى اليوم في حروفها الأولى « *B. L. M.* » في رأس بعض البطاقات الخاصة بالمجاملات الاحتفالية .
- (٨١) - وكان في ذلك العصر أجل أحياء مدينة بلد الوليد .
- (٨٢) - كان رهبان هذه الطريقة يجمعون التبرعات لدفع فدية الأسارى ، وكانوا مشهورين بالجشع ولهذا كانوا سيي' السمعة .
- (٨٣) - المقصود هو صك الغفران المسمى « صك غفران الحملة الصليبية المقدسة » وكان يساوي عدة غفرانات لأولئك الذين يشترونه ، وقد أحدث بيعه كثيرا من الفضائح والمساوى .
- (٨٤) - نوع من الخوخ الصلب اللحم المسك بالنسوة - والكشمري البرجموت « *Peras verdifiales* » نوع من الكشمري والكلمة برجموت أصلها إيطالية « *Bergamotta* » ، وهذه من التركية : بك أرمودى أي كشمري البك ، ومنها جاءت الكلمة أرمودت أو عرموت المستعملة في العراق وبعض بلاد الخليج .
- (٨٥) - رسائل من الأسقف تسمح لكاهن في أبروشية بتلقي الرسامة في أبروشية أخرى وكلمة « *letras* » تفهم بمعينين : الآداب ، أو الرسائل ، وقد اخترنا هنا المعنى الأول . وفي النص هنا تلاعب بالألفاظ بين كلمتي « *reverendos* » (المبجلون) وكلمة « *reverendas* » (= رسائل الاحالة) .
- (٨٦) - أرباض في شمال شرقي طليطلة وربما كان المقصود : نواحي طليطلة .
- (٨٧) - الفستان « *fustán* » : نوع من القماش المتقاطع لحمته من الصوف وسداه من القطن .
- (٨٨) - وجبة تؤخذ في وقت متأخر من الليل وتتألف من مربى وكعك وحلوى ، يصاحبها شرب مخمر جيدة .
- (٨٩) « *Cuellar* » مدينة صغيرة في مقاطعة « اشقوية » كان يعمل فيها أنطونيو صانع السلاح الذي أشرنا إليه من قبل ، وكان له شريكان آخران هما بييرو وكتلندو ، ربما كانا إيطاليين كما يدل على ذلك اسمها .
- (٩٠) - إلى كنيسة ، وفقا لحق الاتجاء .
- (٩١) - أي شغلة في الميري كما تقول لفتنا العامية المصرية .
- (٩٢) - تطبيق فكه لعبارة الانجيل : « ومن يعانون العذاب بسبب العدالة » (انجيل متى اصحاح ٥ : ١٠) .
- (٩٣) - تسييس ينتدبه الأسقف ليكون رئيسا في دائرة من دوائر أسقفيته .



© INSTITUTO HISPANO-ÁRABE DE CULTURA
Paseo de Juan XXIII, 5. MADRID

I.S.B.N.: 84-7472-016-8
D. Legal: M-33370-1979

Imprime: COPIGRAF, S. L. - Ibiza, 52 - MADRID